لورا أورڤيتو

حِكَايَاتٌ وَأَسَاطِيرُ

عَنْ وِلَادَةِ مَدِينَةِ رُومَا



مجموعة
قِصَصٌ عَالَمِيَّةٌ

ترجمة
ميساء الحفار

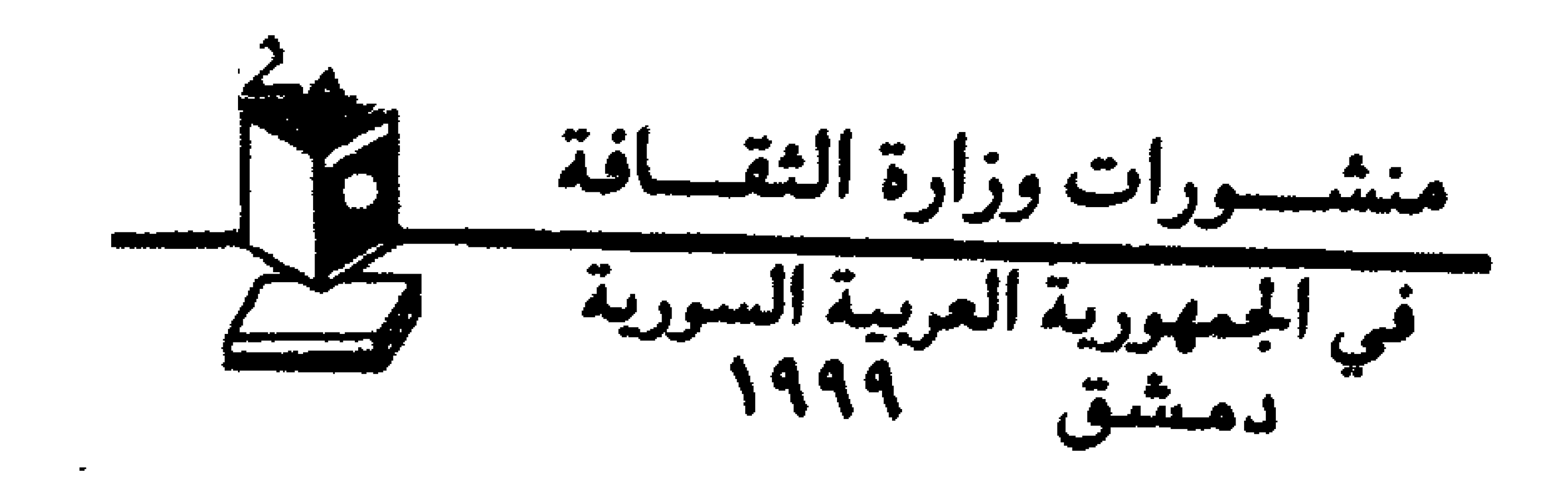
الإشراف الفني زهير الحمو

لورا أورفيتو

حكايات وأساطير
عن ولادة مدينة روما

مجموعة قصص عالمية

ترجمة
ميساء الحفار



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب:

LAURA ORVIETO

Contes et légendes
de la naissance de Rome

Illustrations de J. Kubn-Régnier
Couverture Christian Jauffret

ARC EN POCHE / NATHAN

حكايات وأساطير عن ولادة مدينة روما : مجموعة قصص عالمية = Contes et Legendes de la naissance de Rome / لورا أورفييتو ؛ ترجمة ميساء الحفار . - دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٩ . - ١٢٨ ص؛ ٢٤ سم.

١- ٨٤٣ أ ور ح ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤-أورفييتو ٥- الحفار مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٧٢٤ /٩/ ١٩٩٩

-١-

قصة الملك بروكاس وولديه

منذ ألف، بل منذ ألفي سنة، قامت في وسط الغابات وقرب النهر الصافي، مدينة الألب البيضاء حيث كان يسكن ملك البلاد المدعو بروكاس.

كان لهذا الملك الطيب ولدان، ولكنّه لم يكن سعيداً البتة، وكانت روحه دائماً معذبة.

كيف له أن ينعم بالهدوء؟ فمن بين ولديه كان البكر يشبهه كثيراً فهو طيب وعادل مثله، ولم يكن يسبب له أي همّ. لكن ابنه الثاني كان يقلقه لأنه شرير ومحتال ومستعد للعنف والخداع دوماً. وبسبب طموحه المفرط لم يكن يصغي مطلقاً إلى صوت العقل.

كان الملك العجوز بروكاس قلقاً، فقد رأى أن حب ابنه للسلام كان من القوة بحيث لايسمح لنفسه معها أن يخضع لعنف وطغيان ابنه الأصغر.

وطالما أن بروكاس حيّ، فإن كل شيء سيكون على ما يرام، لكنْ ما الذي سيحصل بعد ذلك؟

من المؤكد أن الأمير آموليوس يودّ أن يكون الحاكم الأبدي والمطلق على البلاد.

كان الملك العجوز يتعذب: «ماذا يمكنني أن أفعل، كيف أرتّب الأشياء كي يتفاهم ولداي كأخوين طيبين بعد مماتي؟».

وعندما شعر بدنو أجله، استدعى ولديه: الراعي والمحارب، وقال لهما:

«ولديّ، بعد بضع ساعات لن أكون في هذه الدنيا، وأنالست آسفاً على تركها فأنا عجوز. ولكن قبل أن أموت سأطلب منكما شيئاً وهو أن تتقاسما كأخوين طيبين الميراث الذي سأتركه لكما. اجعلاه قسمين متعادلين: أنت آموليوس اقتسم، وأنت يا «نوميتور»، اخترْ.

قال الأمير آموليوس بصوت خفيض وكئيب: سنفعل حسب رغبتك يا أبي». وأصدرت الأسلحة التي يرتديها ليل نهار رنيناً مخنوقاً.

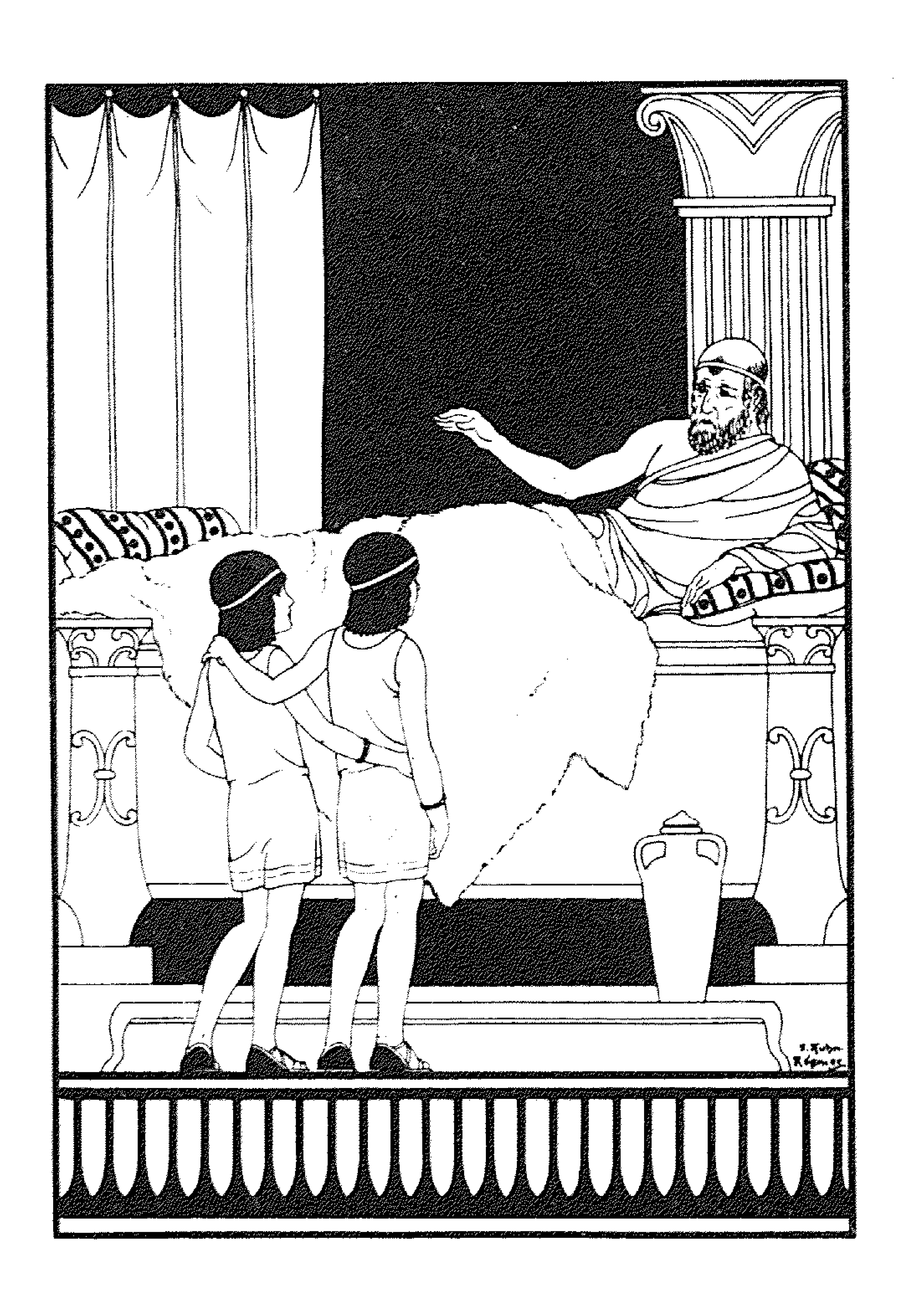
وفيما الأميران قرب سرير والدهما المحتضر يتكلمان بهذا الشكل، دخل الغرفة صبي صغير، إنه ابن الأمير نوميتور، تتبعه طفلتان مرحتان ترتديان ملابس بيضاء، وتمسك كل واحدة بيد الأخرى، لقد كانتا الأميرة «آنتو» ابنة الأمير آموليوس، والأميرة «سيلڤيا» ابنة الأمير نوميتور.

كانتا أشبه بأختين منهما بابنتي عم، فكلتاهما لهما الوجه الجميل المرح ذاته، والعيون البرّاقة، والبشرة الوردية، وكانتا تحبان بعضهما بمودة وحنان.

ابتسم بروكاس لدى رؤيتهم وباركهم.

ثم تمدد في فراشه ولم يعد يتكلم. كان الموت سيأتيه، وكان ينتظره بطمأنينة فهو لم يكن يخشاه، لأنه كان دائماً يقوم بواجبه طوال حياته كلها.

جاء الموت مثل ظلّ كبير هادىء، وأخذ الملك العجوز من سباته.



-٢-
قصة الأمير الصغير

بعد موت الملك العجوز بروكاس وإجراء مراسم الجنازة، ذهب الأمير آموليوس لرؤية الأمير نوميتور فقال في نفسه: «لقد كلّفني والدنا القيام باقتسام الثروة وقال لأخي أن يختار، إذاً، يجب أن أقتسم الأشياء بحيث أجد دائماً الوسيلة للتفوق عليه مهما كان اختياره».

إثر تفكيره بذلك قال الأمير آموليوس.

- أخي، لقد أتيت إليك لتنفيذ رغبة أبينا، وهذا ماأقترحه عليك:

أن يحصل أحدنا على السلطة والآخر على الممتلكات. هل يبدو لك ذلك عادلاً؟ وماذا تختار أنت، المُلك أم الثروة؟

أجاب الأمير نوميتور:

- لايهمني أن أكون غنياً. أفضّل أن أصبح ملك الألب لأفعل بعض الخير لشعبي.

ابق أنت معي، فوالدنا الآن ميت، وعلينا أن نكون أكثر اتحاداً وأن نحب بعضنا بشكل أكبر!

هذا ما قاله الأمير نوميتور الذي لم يكن يشكّ بأفكار أخيه السيئة، ولايرى سوى الخير.

أصبح الأمير نوميتور ملكاً، وأقام له الناس احتفالاً أشعلوا فيه النار وأنشدوا أغنيات الفرح.

سكن الأخوان معاً في البلاط الملكي، وعاش معهما كلٌّ من الأميرتين «آنتو» و«ريا سيلڤيا» وابن الملك وهو صبي وسيم يحبه الشعب كله. لقد كان هذا الفتى قوياً وشجاعاً، ولكنه لم يكن كذلك كفاية في عيني الأمير آموليوس الذي كان يلزمه بالبحث دائماً عن مهالك جديدة، بَدَلَ أن يردعه وينصحه بأخذ الحذر فهو لم يكن يحب ابن أخيه الشاب، القوي، والمهيأ لأن يصبح ملك الألب. فهو وحده من يجب أن يكون ملكاً: بأي ثمن وبأي جريمة، سيصبح ملكاً!

ذات صباح، وقبل أن تنجلي عتمة الليل، أيقظ الأمير آموليوس الفتى كي يأخذه بعيداً في الغابات الكثيفة والمعتمة في رحلة خطرة لمواجهة الخنازير البرية والذئاب المفترسة. لذا استدعى رفاق الصيد والخدم، وأخذ الكلاب وغادر مع ابن أخيه. دون أن يُعلِم الصياد العجوز الذي كان الملك قد عهد بالصبي إليه.

غادروا نحو الغابات السوداء، وكانت تُسمَع من بعيد أصوات عواء الذئاب الجائعة والشاردة بحثاً عن الفرائس. شرع الصيادون في ملاحقتها، واحتدم الصراع بين الرجال والحيوانات، وكانت معركة ضارية.

وهكذا، لم يبق هناك أحد لحماية ابن الملك، وإنْ كان هنالك من يفكر فيه فهو من يدفعه نحو التهلكة. وفي خضم العراك بين الرجال والحيوانات سقط الأمير الشاب ينهشه الجوع، ممزقاً، مدمّى.

صنع الصيادون نقّالة من أغصان وفروع الشجر، ومدّدوا عليها جسد الشاب.

بدأت السماء تنقشع من خلال الأشجار القاتمة، والعصافير تغرد بفرح على الأغصان بينما هم عائدون إلى «الألب» بخطوات بطيئة يحملون باكين جسد الأمير الجامد.

عمَّ المدينة حزن عظيم، وبكى الملك نوميتور بشدة على جثمان هذا الشاب الغالي وتغلغل الحزن العميق في نفسه.

لم يخطر ببال أحد، أن الأمير آموليوس هو الذي ساق ابن أخيه إلى الغابات كي يلاقي حتفه سوى الصياد العجوز الذي لم يُستَدع إلى ذلك الصيد الليلي والذي سبق له وأن حمى الطفل عدة مرات.

وبينما كان جثمان الأمير الشاب يُنقل إلى المكان المخصص بجانب جثمان جده، كان الصياد العجوز يمشي حزيناً إلى جانب الآخرين وهو يبكي ويفكر:

«يا آموليوس المتوحش، إنك تزرع الحقد وستجني الحقد، تبذر الدماء! وستحصد الدماء!».

-٣-

قصة الأميرة ڤيستاليه التي أصبحت كاهنة ڤيستاليّه*

مرت سنة أيضاً.

كان في مدينة آلب معبد مكرس لآلهة البيت. تلك الآلهة التي كانت تدعى «ڤيستا» وفي معبدها يجب أن تبقى النار مشتعلة ليل نهار لذا تقوم أربع فتيات مختارات من بين أنبل الفتيات في المدينة، بحراستها كل في دورها كي لاتنطفىء الشعلة أبداً.

كانت تُعبَد في البيوت حيث ينبغي أن لاتنطفىء شعلتها أبداً، كذلك في معبد ڤيستا حيث يذهب الناس للصلاة في أيام الاحتفال. كان ينبغي أن تلتمع الشعلة بلا انقطاع فوق المذبح وإذا انطفأت صدفةً، تكوّنت لدى الناس القناعة بأن مصيبة ستحلُّ وتعلن المدينة كلها الحداد، فينوح الأهالي وينتحبون ويقومون بالطواف يستعطفون الآلهة ڤيستا كي لاترسل لهم عقوبات قاسية جداً تكفيراً عن خطاياهم. وتحلّ على الفتاة التي أهملت هيكل ڤيستا عقوبة رهيبة.

---

* كاهنة الآلهة ڤيستا في روما القديمة.

مع ذلك، فلقد كانت حارسات المعبد عادةً، مُبجّلات ومحترمات أكثر من جميع النساء الأخريات، فلقد كنَّ يجلبن الحظ السعيد: فإذا لاقى أحد المحكومين إحدى الكاهنات الڤيستاليات وهو في طريقه إلى تنفيذ العقوبة، فإنها تستطيع إذا شاءت أن تطلب له العفو، وكان يُحرّر.

عندما بلغت الأميرة سيلڤيا العاشرة من عمرها، استدعاها الأمير آموليوس، وبما أنه لم يترك لأخيه نوميتور سوى لقب الملك الذي لم يكن يهمه كثيراً، فقد أصبح الحاكم الحقيقي لمدينة آلب. لذا قام الأمير آموليوس باستدعاء الأميرة وقال لها: أيتها الأميرة ريا سيلڤيا، أتعلمين ما هو الشرف الأعظم الذي يمكن أن يُمنح إلى طفلة من مدينة آلب؟ إنه تسميتها كاهنة ڤيستاليّه وتكليفها بحراسة الشعلة. أنا أمنحك هذا الشرف، سترتدين الثوب الأبيض الناعم الذي وحدهن الكاهنات الڤيستاليات يستطعن ارتداءه وستتم خدمتك وتبجيلك أكثر من ملكة.

قبلت الأميرة سيلڤيا بفرح. وهرعت نحو ابنة عمها التي كانت ما تزال صديقتها وبيت سرّها، وأخبرتها على الفور بالنبأ العظيم.

- آه سيلڤيا! لمَ أنت وحدك؟ أنا أيضاً أريد أن أصبح ڤيستاليه وأن أبقى بقربك دائماً!

وهرعت الأميرة «آنتو» إلى أبيها لتقول له بأنها تريد أن تحرس النار المقدسة وأن تصبح كاهنة لڤيستا كابنة عمها.

- لا يا ابنتي، ليس أنتِ، أجابها الأمير آموليوس. إن الكاهنات الڤيستاليات لا يستطعن الزواج أو إنجاب الأولاد، وأنا أريد خلال بضع سنوات أن أزوجك إلى أمير كي تضعي للعالم طفلاً وسيماً وقوياً يستطيع أن يصبح ملك الآلب ولكنني

أعدك بأنك ستبقين دائماً مع الأميرة سيلڤيا ومعي، وأن لاشيء سيتغير في حياتكما.

استمرت الحياة على عهدها بالنسبة لابنتي العم. فكانتا تمضيان معاً ساعات عدة من النهار. وصداقتهما تزداد متانة يوماً بعد يوم.



-٤-

قصة الكاهنة الڤيستالية والنار المطفأة

مرّت السنون. وفي صباح أحد أيام الربيع، ذهبت الأميرة سيلڤيا كعادتها إلى الغابة كي تنهل الماء من النبع المقدس.

كانت هناك وحدها عندما التقت بمحارب شاب، وهو في طريقه التفت وأخذ ينظر إليها ملياً وهي تملأ جرّتها بالماء العذب. فكرتْ وقالت في نفسها: «أخال ُأنّ الإله «مارس» قد نزل إلى الأرض بين البشر». لم تستطع نسيان ذلك اللقاء، وما أن رأت الأميرة آنتو حتى أخبرتها به.

في اليوم التالي، صادفت الأميرة سيلڤيا الشاب مجدّداً. وتكرّر ذلك في جميع الأيام. وشيئاً فشيئاً تجرأ الشاب وأخذ يكلمها عن الحبّ، فتمنّتْ لو أنها حرّة كي تستطع الزواج بهذا المحارب الوسيم.

لكنّها للأسف لم تكن حرّة. وكان لزاماً عليها أن ترجوَ الشاب كي لايعاود المرور أبداً من هذا الطريق أو يكلمها بعد ذلك. لكنّه لم يصغ إليها بل كان يأتي كل يوم ويكلمها دوماً حتى تزوجا في السرّ.

مرت الأيام والشهور. كانت الأميرة سيلڤيا تبدو حزينة أكثر فأكثر. فهي تبكي كثيراً، تحرس النار وتبكي، تتلو صلواتها وتبكي فلاحظت الكاهنات وزميلاتها ذلك، وطلبت الأميرة «آنتو» منها أن توضح سبب حزنها.

قصّتْ الأميرة سيلڤيا باكية للأميرة آنتو بأنها تزوجت سراً من محارب النبع وبأنها تنتظر مولوداً.

صاحت الأميرة أنتو بذهول: «مولود.. مولود؟ أنتِ؟ الكاهنة الڤيستاليّة؟

ولكن، أتعلمين ما هي العقوبة التي تنتظرك؟ آه يا للآلهة! ماذا نفعل؟ لنصلِّ للآلهة كي تحمينا!

حلّ الليل. وكان دور الأميرة سيلڤيا في الحراسة، أخذت مكانها في المعبد ترافقها فتاة في الثانية عشرة من عمرها تتدرب على مهام الكاهنة الڤستالية.

ولشدة ما بكت الأميرة سيلڤيا فقد نامت. ونامت الفتاة بدورها.

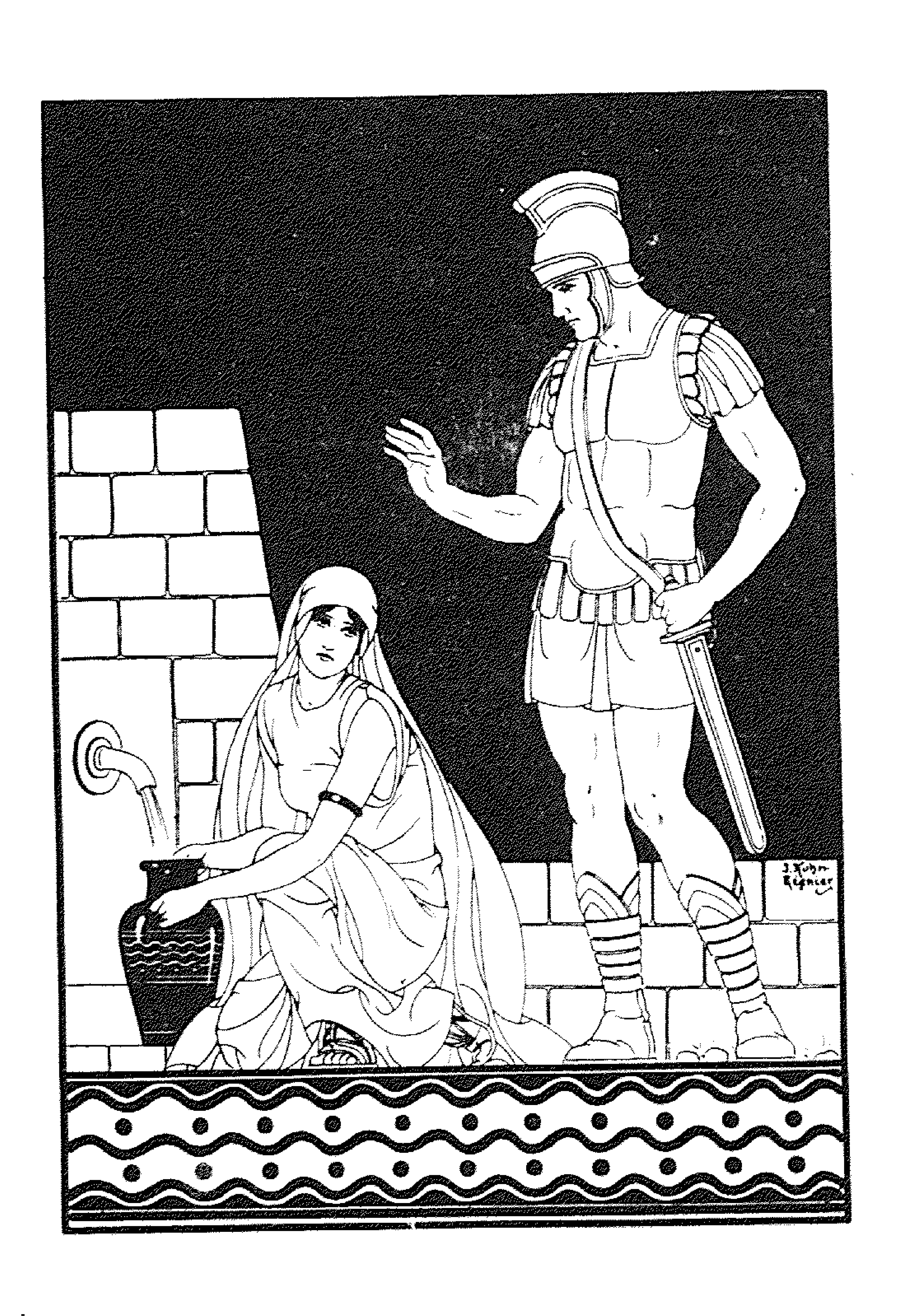
فجأة، استيقظتْ وهي ترتجف وأخذت الأميرة تنادي على الفتاة بصوت غريب، ونهضت مذعورة على قدميها حتى قبل أن تفتح عينيها.

- هنا، هناك، الحطب يخفّ، إنه يخف أيضاً.. لقد انطفأ، انطفأت النار!

انهمكت الأميرة ومرافقتها وهما تدوران حول المعبد حيث لم تعد النار سوى طيف أحمر غير واضح وسط كومة من الرماد. ولم يعد لدى الأميرة النار بل على العكس من ذلك ففي غمرة ضيقها كانت تحرك الجمرات المتبقيات بسرعة جعلتها تنطفىء تحت الرماد. فجأة، شعرت نفسها تتجمد من الرعب، فقد فُتح باب المعبد، وبدا أمامها عمها مثل ظلٍّ مرعب.

نظر الأمير آموليوس حوله. واستشاط غضباً عندما فهم أن كل ما نقله جواسيسه عن موضوع الأميرة سيلڤيا كان صحيحاً. لم يكن في قلبه أية شفقة على الأميرة البائسة التي كانت تبكي:

- ينبغي أن تبكي، وستظلين تبكين هكذا حتى مماتك. ألم تتزوجي في السرّ وتنتظرين مولوداً؟ وأردف الأمير بسخرية فظيعة: وليكن عزاءك أنك لن تبكي طويلاً، إذْ لن تعيشي مدة أطول، ستُساقين إلى زنزانة تحت الأرض وسيسوّر باب



السجن بحائط، ولن يرى وجهك أحد. تلك هي عقوبتك. غادري الآن معبد الڤيستا، فلم تعودي جديرة بالبقاء فيه؟

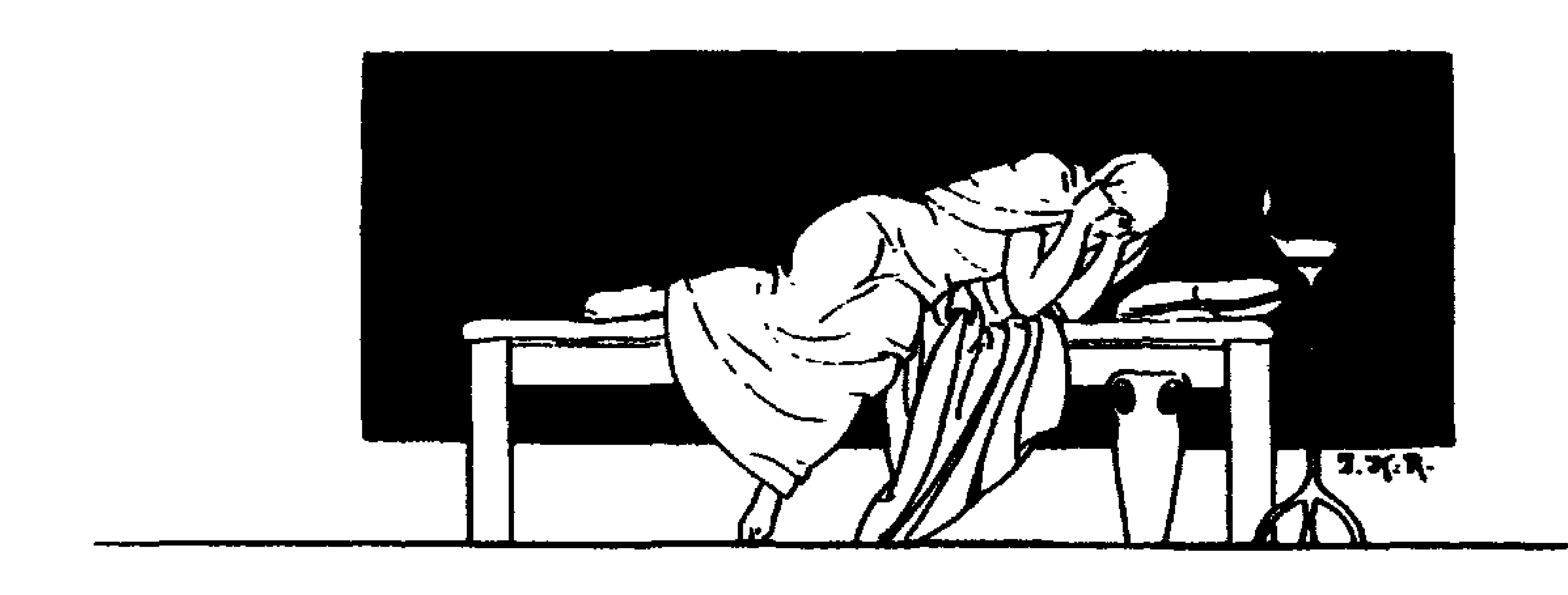
نادى الأمير آموليوس حارسين أخذا الأميرة إلى البلاط الملكي ووضعاها في السجن المجاور.

في صباح اليوم التالي، حدثت جلبة كبيرة أمام معبد الڤيستا. فقد انطفأت النار واختفت الأميرة. وصار النواح يُسمع في كل ناحية.

عندما سمعت الأميرة آنتو الصراخ، فهمت ماجرى. هرعت يائسة نحو أبيها لكنها وجدته عابساً ومهدّداً ومخيفاً. فانكفأت على نفسها مذعورة في إحدى زوايا الغرفة، لقد بدا لها أنه لم يعد أبيها بل كائن غريب ومخيف، لاشيء يمكن أن يثنيه.

- هكذا يا ابنتي، لقد خالفتْ ابنةُ عمّك قسمَها ككاهنة ڤيستاليّة. وكما تعلمين عندما تخالف الڤيستالية قسمها فإنها تُسجَن في زنزانة تحت الأرض، وتُترك هناك لتموت. ليس بإمكان أحد إنقاذها، حتى أنا لو أردْتُ ذلك.

أُخذت الأميرة سيلڤيا من السجن القريب ونُقلَت إلى الزنزانة التي تقع تحت الأرض. ولاح وجهها للمرة الأخيرة من خلف الضوء الخافت، فلقد أغلق البنّاؤون المدخلَ بالحجارة والطوب، ولن تُفتَح الزنزانة بعد ذلك أبداً.



-٥-

حكاية النار التي اشتعلت مجدّداً

مرّ النهار، وانقضى الليل، وبزغ الفجر وردياً. كان سكان الألب منهمكين جداً، ففي هذا اليوم ينبغي أن يُعادَ إشعال النار. ولكنّ إضاءة الشعلة المقدسة في معبد ڤيستا لم تكن لتحصل بمجرد فرك القطع الخشبية أو الحجرية بعضها ببعض. بل يجب أن تأتي من الشمس مباشرة، حيث تُلتقط بفضل مرآةٍ سحريّة مخروطية الشكل ومصنوعة من نحاس يتلألأ كالذهب، ومثقوبة من طرفيها. فهي لم تُصنع إلا لهذا الغرض فقط. كانت حارسات النار تحتفظن بها بعناية فائقة بين أغراض العبادة الأكثر قدسيّة.

أُقيم للمناسبة احتفال كبير. وأنشدت فيه الكاهنات الڤيستاليات والناس جميعاً أثناء طوافهم حول المعبد باكين للمرة الأخيرة النار المطفأة. ثم حانت الساعة فعرضت الكاهنات المرآة السحريّة لأشعة الشمس، وسط تضرّع الكهنة والناس. هل ستشتعل النار؟ وهل ستعود الآلهة الرحيمة لتحمي مدينة آلب؟

- لقد أُضيئت النار، لقد أضيئت النار!

وسرت في الحشد قشعريرة من الفرح. فقد هدأت الآلهة، وعادت تمنح معروفها مجدداً. أشعلتْ حرارة الشمس المركّزة على المرآة أعوادَ الحطب الجافة

المُعدَّة بأيدي خبيرة وارتفعت الشعلة. لكنَّ الأميرة سيلفيا المحتجزة داخل زنزانتها كانت تنتظر الموت وهي ممددة على فراشها شبه مغميٍّ عليها.

فجأةً. في سكون هذا القبر، سمعت طرقاً خفيفاً وصوتاً ضعيفاً استطاعت تمييزه:

- هذه أنا، آنتو. إن كل من في المدينة هم في المعبد للصلاة من أجل النار.

شش! لاتقولي شيئاً. جئتُ لأخلّصك.

وهكذا خرجت الأميرة سيلڤيا من القبر، وذهبت لتختبيء في إحدى غرف القصر المنعزلة حيث لايدخلها أحد سوى الأميرة آنتو التي كانت تأتيها بالطعام كل يوم.

بيْد أن الشكوك باتت تساور الأمير آموليوس. أخذ يراقب ابنته فاكتشف أن الأميرة سيلڤيا لم تمت، وأنها تعيش في غرفة منعزلة في القصر.

فقال لابنته الباكية:

- حسنٌ، ليكنْ! ستبقى الأميرة سيلڤيا على قيد الحياة، لكنّ طفلها لي.

ما أن يولَد، تحضرينه لي، فأنا من يحقّ له أن يقرّر حياته أو موته.

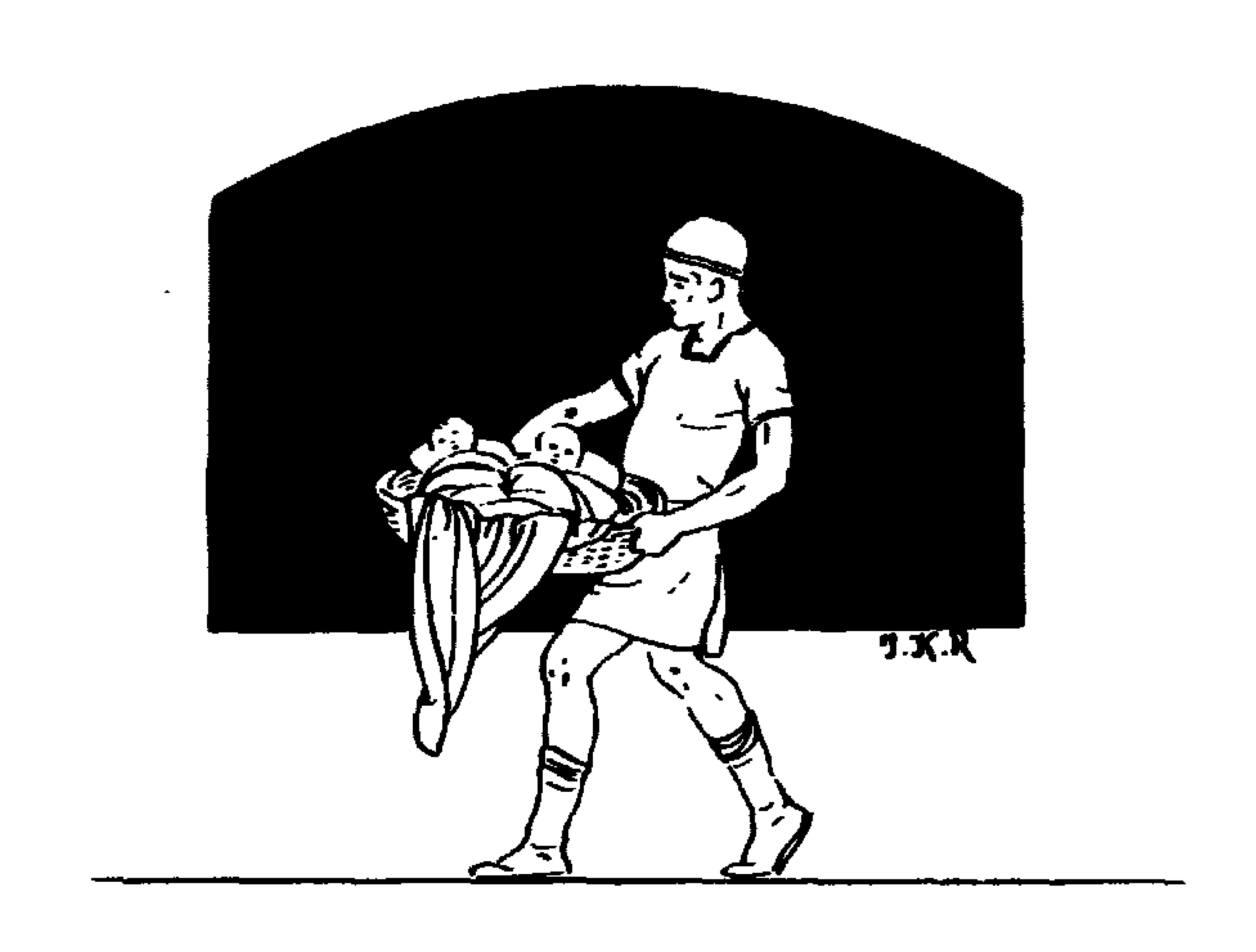
أجابت الأميرة آنتو:

- كما تريد يا أبي.

لم يكن طفلاً من ولُد بل طفلين، وسرعان ما جاء شخص من قبل الأمير آموليوس لأخذهما. لفّتْ الأميرة سيلڤيا. والحزن يعصر قلبها- الرضيعين

بقماطات ناعمة وطريّة كانت قد حاكتها ونسجتها لهما، ووضعتهما في سلة، وضمّتهما وقبّلتهما طويلاً، ثم ناولتها للرجل الذي جاء ليأخذهما.

تمدّدت بعدئذ على سريرها، وشاحت بوجهها نحو الأرض وظلت جامدة بلا حراك، وقلبها يغمره الحزن وهي تفكر بولديها اللذيْن لن تراهما بعد ذلك أبداً.



-٦-

حكاية الطفلين الرضيعين

قال الرجل وهويقدّم السلّة ذات الرباطات النحاسية إلى الأمير آموليوس :

- ها هما .

- ماذا ؟ اثنان؟ طفلان؟ لا أريد أن أراهما ، لاأريد أن ألمسهما . احملهما إلى خارج المدينة ولْيموتا اليوم ، هل فهمت؟ لا يهمني كيف وأين ، يكفيني أن أتأكد من موتهما . وعندما تعود ، لاينبغي لهذين الطفلين أن يكونا على قيد الحياة!

تناول الرجلُ السلّة ، وخرج من القصر . اجتاز المدينةَ ، وأخذ يهيم في الغابات بعيداً حيث يُسمع عواء الذئاب . إلى أن وصل إلى شاطىء نهر التيبر الذي يجري صافياً وسريعاً .

وعلى مقربة من التيبر ، كان هنالك رجل يسكن كوخاً ويقوم بالعناية بخنازير الأمير آموليوس . فاجتاز ذلك الكوخ وصعد باتجاه المجرَى الأعلى للنهر وهو يفكر بالسلة المخبأة تحت معطفه ، وبالطفلين النائمين فيها بهدوء وكأنهما بين ذراعي أمهما .

فجأة ، شاهد على إحدى الاكمات ذئبةً كبيرة برزتْ ومن ورائها السماء الزرقاء ، تحدجه بعينين تشعّان كالحجر المشتعل .

«إنها سوف تقتل الطفلين . سأتركهما هنا ، وخلال ساعة ستلتهمهما . ياللمسكينين ! آسف لذلك ! لكنْ عليّ أن أطيع الأوامر التي تلقيتُها» .

وضع الصياد العجوز السلّةَ بين أعواد القصب على شاطىء النهر، وقفل عائداً إلى المدينة.

سأل الأميرُ الرجلَ:

- هل تمّ كل شيء؟

- لقد تمّ كلُّ شيء، على أحسن وجه.

وشعر الأمير آموليوس بالرضى لأنه كان على يقين من أن ولديّ الأميرة سيلفيا قد ماتا. ولن يعودا مطلقاً للمطالبة بحقّهما في عرش الملك نوميتور.

بيد أن راعي الخنازير فوستولوس لاحظ في الأيام التالية ظاهرة غريبة:

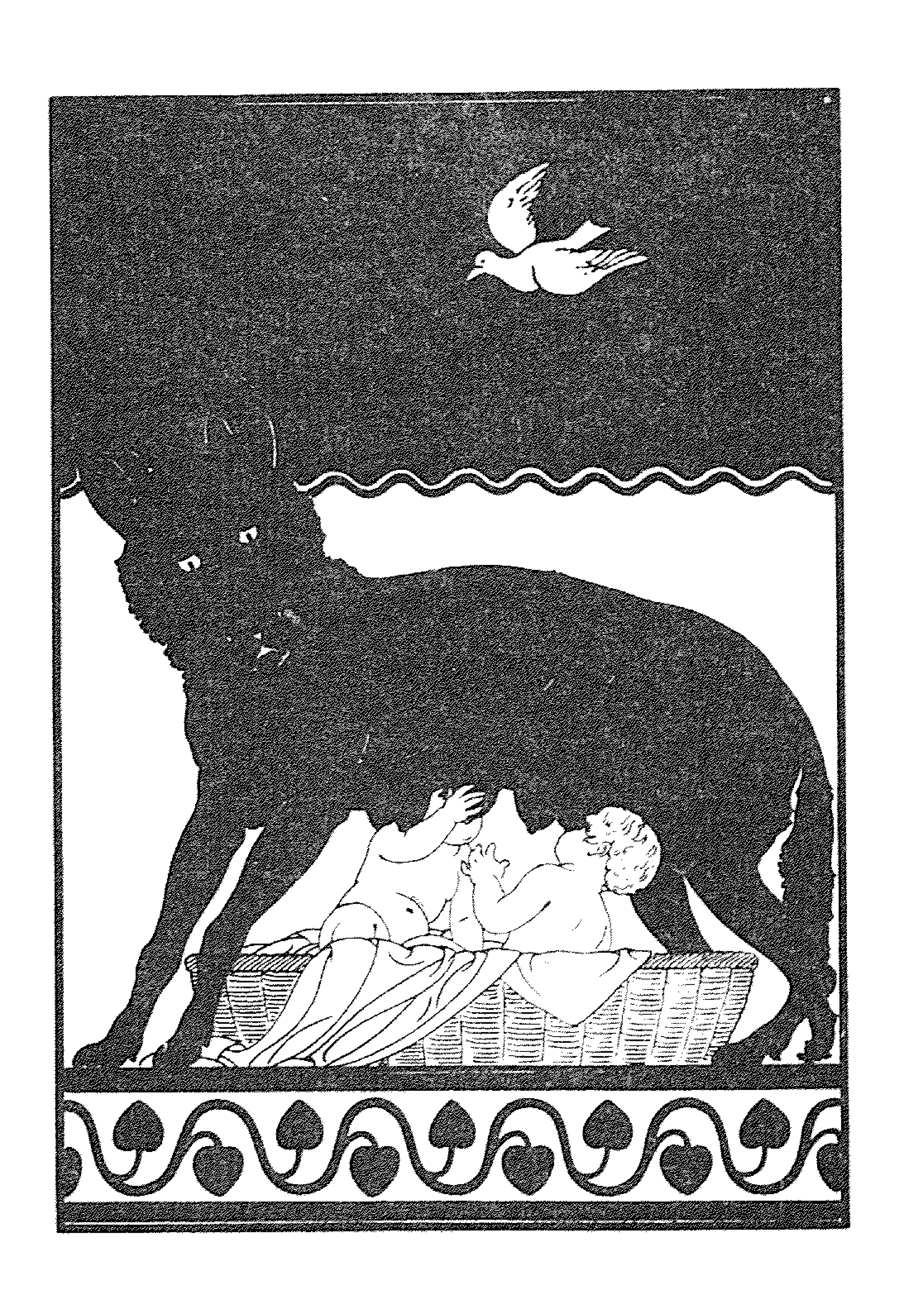
ففي كل يوم، تخرج ذئبة من الغابة وتقترب من النهر. كانت تمر أمام كوخ الراعي وتجتاز الجرف الكثير الحصى وتختفي بين الأدغال، ثم تأخذ مجدداً طريق الغابة. حتى أنها كانت تأتي عدة مرات في اليوم. وإلى جانبها طائر النقار الأخضر الذي بدا منهمكاً أيضاً في الأدغال وكأن لديه عشاً هناك.

رأى الراعي فوستولوس الذئبة تمر مرة ثم مرتين، ثم ثلاث مرات، فأخبر زوجته «آتشا لارنسيا» بذلك.

- آتشا، ألا تعلمين؟ هنالك ذئبة تخرج كل يوم من الغابة وتسير نحو النهر بهدوء، دون أن تنظر حتى إلى الخنازير الصغيرة بل تتابع سيرها وكأن لديها شيئاً هاماً لتصنعه. وتبقى بضع لحظات قرب الماء ثم تقفل عائدة إلى الغابة.

ما الذي يمكن أن يكون هناك على هذه الدرجة من الأهمية بالنسبة لها؟ لنذهب غداً ونرى. أنا متأكد أنها ستعود.

في اليوم التالي، رصد فوستولوس وزوجته للذئبة. أجل، لقد شاهداها تخرج من الغابة، وتقترب من النهر. ثم تتوقف وتتمدد في المكان ذاته كما فعلت في اليوم السابق. والطائر النقّار يحوم حولها. ثم تعود من حيث أتت.



عندما غادرت الذئبة، قالت آتشا: هيّا نذهب ونرى».

فأجابها فوستولوس. نعم، لنذهب.

هناك، شاهدا بين الأدغال، سلّة من القش ذات أربطة نحاسية، يرقد فيها جسمان صغيران يتحركان ويثغوان. صاح فوستولوس متعجباً:

- طفل، طفلان! ما أجملهما! ويا للذئبة الطيبة. ماالذي سنفعله بهذين الطفلين؟

قالت الزوجة: - لنأخذهما معنا، لقد اعتنت ذئبةٌ بهذين الكائنين الصغيرين، فهل تريدنا ألاّ نعتني بهما؟ من الواضح أن الآلهة قد حمتهما. انظر إلى ذلك الطائر الذي يبدو أنه هو أيضاً يحرسهما.

أجاب زوج آتشا وهو يحكّ أذنه: - معك حق! لكن، لن يكون الأمر سهلاً! إذ يجب إطعام هذين الطفلين!. ثم، ماالذي سيقوله سيدنا إذا علم أننا تبنينا طفلاً، لا بل اثنين؟ إنها مشكلة!

- لن يعلم الأمير آموليوس أبداً أننا تبنينا طفلين. وإذا ماشاهدهما سنقول له بأنهما ولدينا. ليس عندنا أولاد ولكننا نستطيع أن نحتفظ بهما!

- ومن سترضعهما؟

- الذئبة على الأرجح! وسترى أنها إذا مرّت أمام الكوخ ووجدتهما فإنها ستستمر بارضاعهما من حليبها. لقد تعلقتْ بهذين الصغيرين. انظر كم هما جميلان وقويان وبصحة جيدة، مع أنه لا يمكن أن يكون عمرهما قد تجاوز بضعة أيام!

أخذت آتشا السلة، وحملت الصغيرين إلى منزلها واعتنت بهما بكل مودة وحب. أما بالنسبة للطعام، فلقد كانت على حق. ففي كل يوم، كانت الذئبة تأتي وتتوقف أمام الكوخ حيث كانت آتشا تمدد الطفلين يومياً في الوقت ذاته،

فترضعهما من حليبها، وكانا يميّزانها، فيفرحان ما أن يرياها قادمة ويبدأان باللهو كذئبين صغيرين.

وهكذا شبّ الصبيّان اللذان أُطلق عليهما اسما رومولوس وريموس، بين النهر الصافي والغابات القاتمة وكانا على شيء من الوحشية بفضل حليب الذئبة التي أرضعتهما.

وأصبحا قويين. حتى أنهما تغلبا على جميع الأولاد. ونالا شهرة واسعة. وبفضلهما غدا فوستولوس وزوجته آتشا محترمَين جداً لايجرؤ أحد على المسّ بهما.

حان وقت «اللوبركال». و«واللوبركال» هي أعياد غريبة ومتوحشة كان يُحتفل بها كل عام في الأزمنة القديمة. يتوقّف خلالها الجميع عن العمل، ويغادر الأهالي منازلهم ويحتشدون في الطرقات. ويجتمع الرعاة الشباب مع الفلاحين في مغارة كبيرة تقع في جبل بالاتين. وهناك، يضحّي الكهّان بكلب كبير وتيسٍ إكراماً للإله «بان» الذي كان يحمي كلّ حياةٍ على الأرض، ويملأ البرك بالأسماك ويغطي البراري بالورود، والأشجار بالفواكه ويجعل كل الأشياء الحيّة تنمو وتتكاثر بدءاً من الأعشاب الصغيرة جداً والديدان التافهة حتى الأشجار الضخمة، والأجيال البشرية.

في صبيحة الخامس عشرة من شباط، ارتدى رومولوس وريموس جلود الماعز، واتجها صوب جبل بالاتين، إلى الكهف حيث كان الكهان مجتمعين، ورغم الحشد الكبير من الشباب القادمين من جميع الأنحاء للاحتفال بالإله «بان». فقد أُفسح للأخوين مكانٌ قرب المذبح.

جُهز الكلب والتيس للتضحية بهما. فأخذهما الكهان وذبحوهما وقطعوهما وجعلوا من جلديهما أسواطاً عدة، وزعوها على أقوى الشباب. فاندفع كل شاب يحمل سوطه بيده إلى الخارج يضرب به كل من يراه في طريقه. ولم يكن الناس

يهربون أمام تلك الضربات، بل على العكس، كانوا يسعون لأن يُصيبهم الجلد الدامي الذي يجلب السعادة، فمن يلسعه السوط، يكون محصوله وفيراً في ذلك العام. وماشيته كثيرة ويلاقي الازدهار في عائلته وأعماله.

هرع رومولوس وريموس مع الآخرين يضربون أمثالهم. فجأة شاهدا من بعيد رعاة عدّة ينتحبون بيأس. توقفا لحظة، ثم غادرا الموكب، ركضا نحوهم، يتبعهما بضع رجال آخرين.

بدا على الرعاة أنهم تعرضوا للضرب واساءة المعاملة حيث تمزقت ثيابهم. فسألهم رومولوس وريموس:

- ما الذي جرى لكم؟ لمَ تبكون؟

أجاب الرعاة:

- انظرا هناك! لقد أخذ قطّاع الطرق هؤلاء أفضل ما عندنا من ماعز وغنم!

ما الذي سيقوله سيّدنا؟ يا لتعاستنا! لقد أخذوا أموالنا وابتعدوا هاربين! يا لتعاستنا!

وما أن فكر الرعاة بما سيفعله سيدهم حتى عادوا إلى النواح والعويل. فسألهما رومولوس وريموس:

- من هو سيدكم؟

- سيدنا، ياويلنا، سيدنا هو الأمير آموليوس، ماالذي سيفعله بنا إذا قصصنا له كيف سُرقنا؟

قال ريموس لرومولوس:

- لنذهب ونسترجع الماعز والغنم

وأكّد رومولوس لرعاة الأمير آموليوس:

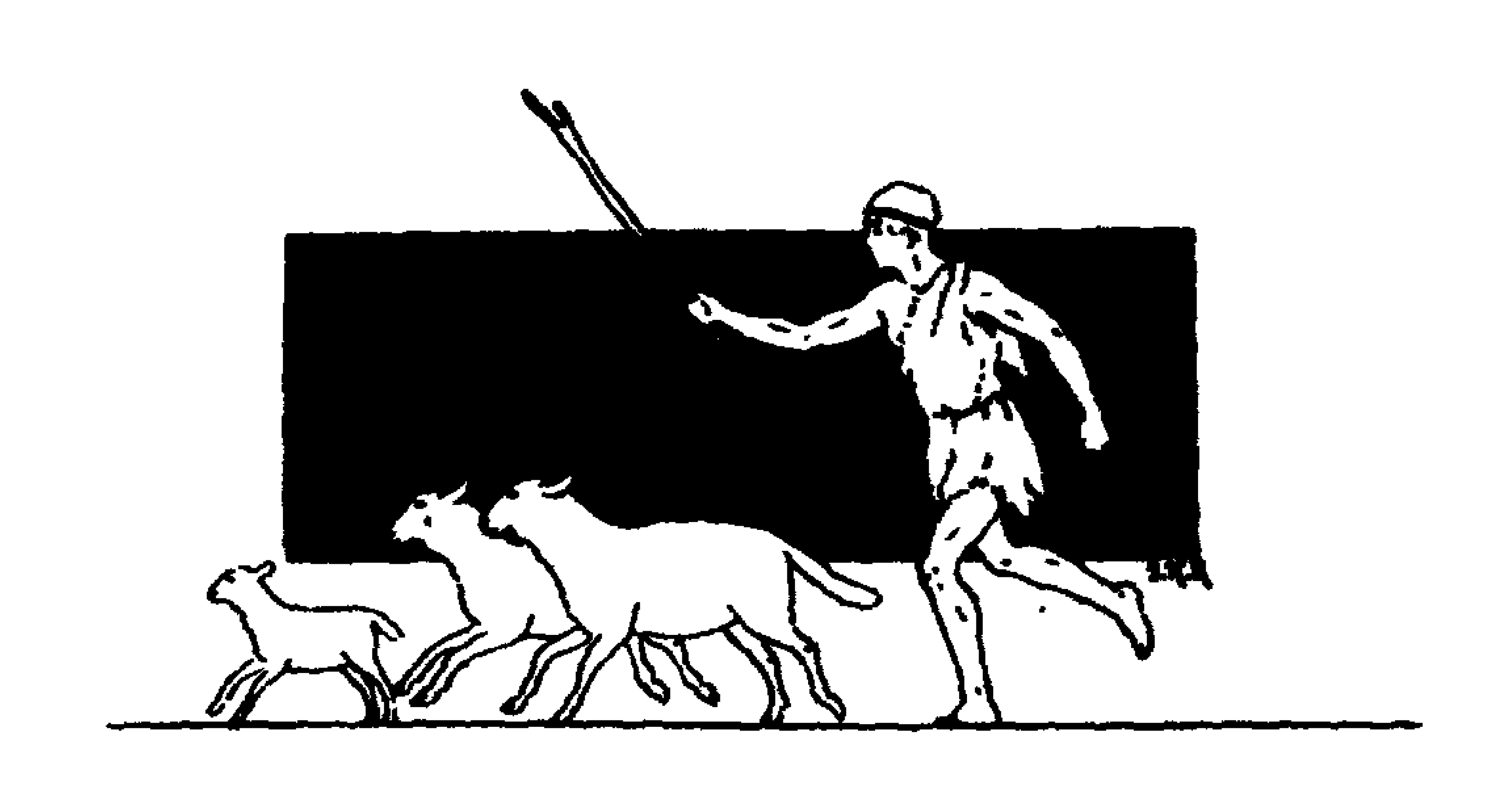
- ستستعيدون بهائمكم سريعاً.

بعد جولة جامحة عبر الغابات والأدغال الشائكة والعلّيق، أدركا اللصوص أخيراً.

لقد كانوا رعاة الملك نوميتور الذين استخدموا حيلتهم الخبيثة، ورفعوا هراواتهم الكبيرة ذات العقد الكثيرة. فانقضّ رومولوس وريموس عليهم، وأشبعاهم ضرباً بالعصا والسوط، واستعادا الماشية المسروقة. ثم عادا إلى الجمع الذي كان ينتظرهما بقلق. عندما سمع رعاة الأمير آموليوس ثغاء الماعز وهو يقترب، ركضوا إلى مخلصيْها، سعداء ومطمئنين.

- ليحميكما الإله «بان» وليجزيكما!

ثم أخذوا ماشيتهم وتوجهوا صوب أكواخهم وهم يشكرونهما، بينما عاد رومولوس وريموس إلى فوستولوس وزوجته.



-٧-

حكاية الطفلان اللقيطان اللذان أصبحا أميرين

لكن رعاة الملك الطيب نوميتور أقسموا على الانتقام. فترصدوا في الغابات. وذات يوم بينما كان ريموس يتنزه مع بعض الأصدقاء دون أخيه هاجموه. وكانت معركة رهيبة دافع فيها ريموس وأصدقاؤه عن أنفسهم ببسالة لكنهم كانوا قلة أمام خصومهم الذين يفوقونهم عدداً. حاول ريموس القتال مثل الشبل، واستطاع أن يهزم اثنين أو ربما ثلاثة لكنه وقع أخيراً في الشرك فرُمي على الأرض وربُط.

قال أحدهم: - ماذا سنفعل به؟

- لنأخذه إلى الملك الذي سيحكم عليه بالموت!

وقاد الرعاةُ ريموس إلى الملك كي يحاكمه.

اجتازوا المدينة واقتربوا من البلاط الملكي. وكان المارة يتوقفون لرؤيته، ويتساءلون عن هوية هذا الشاب الوسيم.

- إنه ابن أحد رعاة الخنازير الذين يعملون في خدمة الأمير آموليوس، إنه شخص عنيف مستعد دائماً للقتال إذا اعترضه أي شيء أو صادفه أي شخص. الوقح! هذا ما أجاب به رعاة الملك نوميتور. لكن رجلاً آتٍ من الريف استطاع التعرف على ريموس فأخذ يدافع عنه ويقول:

- لا، إنه ليس بوقح، فأنا أعرفه جيداً. وجميعنا نعرفه. فهو يدافع عن صاحب الحق، ويعاقب المخطىء. ومن الخطر أن تسيئوا له، فلديه الكثير من الأصدقاء ممن يخاطرون بحياتهم من أجله، وعددهم كثير لانستطيع عدّهم.

وهكذا انقسم القوم إلى قسمين في الوقت الذي أخذ فيه ريموس يدافع عن نفسه ويحاول أن يوضح الأشياء كما حصلت تماماً. ولكن الآخرين لم يدعوه يتكلم. حتى وصلوا إلى البلاط الملكي وهم يصيحون ويزعقون.

قال الملك نوميتور الطيب وهو يرى حشداً كثير الجلبة يتوسطه شاب وسيم مقيّد، ينظر إليه برأس شامخة. ماذا هناك؟

- هذا الصبي أهاننا وجرحنا وسرقنا. أنصفنا أيها الملك، فنحن رعاتك. انظر إلينا! الجراح تغطي أجسادنا.

- لقد هاجمتموني بِخِسّة ودناءة كالضعفاء وتريدون أن لا أدافع عن نفسي؟

لاتستمع إلى رعاتك أيها الملك! أنت عادل، ولكن هؤلاء كاذبين ولصوص.
سأل الملك نوميتور: من هذا الشاب؟ ماذا يدعى؟

- إنه يدعى ريموس وهو ابن راعي الخنازير فوستولوس وابن آتشا لارينسيا. إنه عنيف ووقح. ويبحث عن القتال مع جميع الناس ولديه الكثير من الأصدقاء بحيث يصعب جداً الامساك به ولقد تمكنّا من ذلك بمعجزة. والآن بما أننا جلبناه لك فإننا نطالب بالعدالة.

- تقولون بأنني شرس وسفيه لأنني نجحت باستعادة المال الذي سرقتموه، فلتسأل أيها الملك في قُرانا من أكون ومن يكونون، حتى الولد الصغير يستطيع أن يجيبك!

لكن الملك نوميتور لم يردّعلى ريموس أو على الرعاة بل أدخلهم جميعاً إلى البلاط الملكي وتركهم هناك. فهو لم يكن ملكاً إلا شكلياً والآمر الحقيقي كان الأمير آموليوس.

هكذا، ذهب الملك نوميتور إلى الأمير آموليوس.

- أخي، لقد اصطحب رعاتي إلى القصر اليوم رجلاً وهو ابن حارسك فوستولوس وزوجته آتشالورنسيا. إنهم يتهمونه بسرقتهم وبتعريضهم للقتل والجراح. فهل يمكنك السماح لأحد رجالك باهانة رعاتي دون أن يعاقب؟

رأى الأمير آموليوس الحشد المجتمع أمام البلاط الملكي وفكر: «إنّي غني وقوي. فلندع أخي للمرة الأولى يفعل مايبدو له خيراً».

- نوميتور، ألست أنت ملك «ألب»؟ افعل ما تريد بهذا الشاب.

عاد الملك نوميتور إلى الرعاة. ونظر بعطف إلى ذلك الشبل المقيّد الذي بدوره كان يحدق به كشخص اعتاد على مجابهة الخطر.

- اروِ لي مافعلت. أريد أن أسمعه من فمك.

أخذ الشاب يروي قصته بدقة كما حصل معه وهو يحدق مباشرة في عيني الملك.

- أيها الملك نوميتور، صحيح أنني أهاجِم وأضرِب، إنما حباً بالعدالة، وإصلاح الأخطاء التي يرتكبها صيادوا هذا البلد باستمرار إزاء بعضهم البعض. لو أنك كنت مثلي في احتفالات «اللوبركال» لكنتَ رأيت وسمعتَ بكاء الرعاة الذين سلبهم رجالك أفضل غنمهم وماعزهم، ووجدتَ من العدل أن أقوم أنا ورفاقي بمحاولة استرداد المسروقات لإعادتها إلى أولئك المساكين. فهل ترضى، وأنت من اشتُهر بالحكمة، أن أعاقَب لأنني أقمت العدل؟

ذُهل الملك بشجاعة الشاب وبصراحته. بيدَ أنه رأى أن الحقيقة والعدالة تقتضي أن يستجوبه من أجله ومن أجل الآخرين فقال له:

- ولكن، كيف يمكن أن تكون ابن فوستولوس الراعي؟ هذا لايمكن، لا، بالتأكيد، أنت لست كذلك.. قل لي من هو أباك، ما اسم أمك، وأين ولُدتَ.

أجاب ريموس :

- لا أدري من أنا. أعلمُ أن هناك غموضاً حول ولادتي وولادة أخي التوأم. وأعلمُ أننا لسنا أولاد فوستولوس أبداً. مع أنّ كل الناس يعتبروننا كذلك فهو الذي آوانا عندما تُركنا بعد ولادتنا عرضة للموت.

كان يتكلم ورأسه شامخة، ونظرته ثابتة، بينما الملك نوميتور يحدّق فيه بدهشة. لقد كان يشبه كثيراً ابنه الحبيب الذي مات منذ عدة سنوات، فلهذا الشاب نفس التقاطيع، الصوت ذاته، وفي نظرة عينيه التعبير ذاته أيضاً، وهو تعبير شخص لا يهاب شيئاً. كان الملك نوميتور يتفحصه وقد أشرق وجهه بحنان لا ينضب. فتساءل الرعاة «ما الذي حصل؟ إنه لايفكر حتى في معاقبته. كان من الأفضل أن لانحضره إليه! من تراه يكون هذا الشاب؟».

صرفهم الملك نوميتور، ووعدهم بأنه سيعامل ذلك الشاب الماثل أمام العدالة كما يستحق.

استجوبه مجدّداً، وأخذ يتفحصه عن قرب وقلبه يزخر بأمل لذيذ مازال غامضاً ومبهماً له لكنه لايستطيع التملّص منه.

إلا أن أصدقاء ريموس بعد أن رأوا أن الرعاة قد أسروه، اجتمعوا لتخليصه وذهبوا لإعلام رومولوس وفوستولوس.

- إذا لم نستعجل، فسنجده ميتاً!

- لنسرع هيّا، بسرعة!

فيما كان الشباب منهمكين، خطرت ببال فوستولوس فكرة. وضعَ تحت ابطه السلّة الصغيرة التي كان قد وجد فيها ذات يوم الطفلين على ضفة النهر، وغطّاها بمعطفه، وأخذ يجري صوبَ المدينةِ بأسرع ما تسمح له قدماه الهَرِمتان. فاجتازها ووصل إلى البلاط الملكي.

لم يكن سهلاً إقناع الحراس بالسماح له بالدخول. لكنهم أخيراً أخذوه إلى الملك.

- أيها الملك نوميتور. أنا أفضل من يمكنه أن يوضح لك موضوع هذا الشاب وأعتقد أنك ستكون سعيداً لما سأقوله لك.

سأله الملك:

- تكلّم أيها الرجل الشجاع ولا تُخفِ عني شيئاً تعرفه، من أنت؟

أنا فوستولوس حارس الخنازير، أسكن قرب نهر التيبر. منذ زمن بعيد، يُروى أن طفلاً أو طفلان قد وُلدا في القصر - حسب قول الصيادين - وجرى التخلّي عنهما لاأعرف لماذا... في ذلك الوقت بينما كنت أرعى بهائمي قرب البيت، رأيت ذئبة تمرّ. ذهبتُ نحو النهر وتوقفتُ هناك بضع لحظات، ثم عادت أدراجها. لقد كان تصرفها غريباً جداً. حدثتُ زوجتي عن ذلك، وأردنا أن نعرف سبب ذهاب هذه الذئبة يومياً إلى المكان نفسه وكأنها تحتضن صغارها. حسناً، إليك ما وجدنا! لقد وجدنا هذا الغلام الذي تراه أمامك مع أخيه - وهو وسيم وقويّ مثله - كانا ممدّدين في سلّة أنيقة، وملفوفَيْن بأقمطة فخمة جداً.

فتح فوستولوس معطفه، وأظهر للملك المهد الصغير المصنوع منْ أغصان الصفصاف وما تزال في داخله الأقمطة القطنية واللفائف الناعمة التي كانت الأميرة سيلڤيا قد نسجتها وحاكتها لطفليها.

- في هذا المهد، وجدت الطفلين الجميلين، يقظَيْن وحيَّيْن - فقلت أنا وزوجتي: «لقد أشفقتْ ذئبةٌ على هذين الصغيرين، فهل يُعقل أن نكون أقسى منها؟».

أخذنا السلّة إلى البيت. واعتنت زوجتي بالطفلين. لكن الذئبة ظلت تأتي يومياً وفي الساعة نفسها لإرضاعهما.

وكنّا نضع الطفلين خارج المنزل كي لانخيفها.

هكذا ربيّنا الطفلين. وقد احتفظتُ بالمهد واللفائف. هل من أحدٍ في القصر يستطيع التعرّف عليهما؟

لم يتوقف الملك نوميتور عن النظر إلى المهد. كل شيء مطابق: المكان، والزمان وبالأخص، ذلك التشابه الكبير بين هذا الشاب وبين ابنه الأمير الصغير الذي كان قد قُتل إبّانَ الصيد المرعب.

- ريموس، أنتَ حفيدي، ابن ابنتي!

وعانق الملك العجوز الفتى الراعي وهو يبكي.

في ذلك الوقت، كان الحشد يتزايد أمام البلاط الملكي، متوعداً. أراد ريموس أن يعرف ما الذي يجري ثم قال لنوميتور:

- لاتخشَ شيئاً، أنا هنا، وأستطيع أن أدافع عنك جيداً. هؤلاء أصدقائي بكل تأكيد.

أجل، لقد كانوا رفاقه، أتوا مجتمعين من الريف ضمن فئات منظّمة كما كان يريد رومولوس فلقد قال لهم: «إذا تقدمنا في نظام، كل مجموعة يرأسها قائد، فإن قوتنا ستكون عظيمة وسنحصل على كل ما نريد. لكن إذا تحركنا بلا نظام وبفوضى فإن قوتنا ستنهار».

تعرّف ريموس عليهم. لكن أهالي ألب كانوا قد انضموا إليهم. من دون أن يعرفوا الدافع وراء هذه المسيرة نحو القصر الملكي. لقد كانوا يكرهون الملك آموليوس، وكانت هنالك إشاعة سرَتْ عن مطاردة الملك وإقالته إلى الأبد. فقد حان الوقت أخيراً للخلاص منه! فتح ريموس أبواب القصر، ودخل إليه رومولوس مع رجاله».

إلا أن الأخبار الأكثر غرابة والتي لاتُصدَّق كانت قد انتشرت في القصر .

- هذا الشاب الموقوف يدّعي أنه أمير!

- يريد الملك آموليوس قتله!

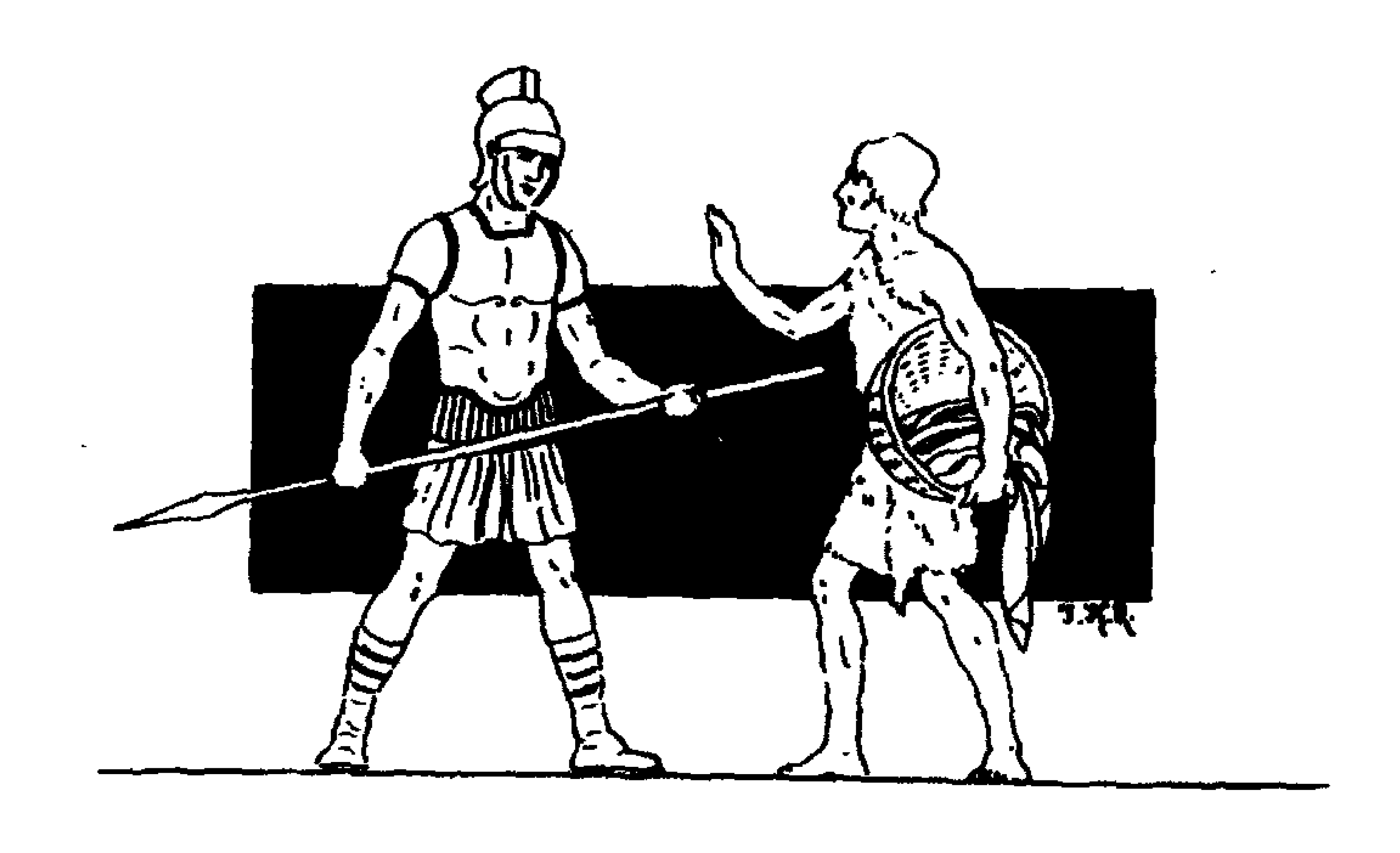
- الملك نوميتور يدافع عنه! إنه حفيده!

- إنه ابن الأميرة سيلڤيا! تلك التي لانراها أبداً والتي يقولون أنها طيبة جداً!

وصلت الإشاعة إلى الأمير آموليوس. فتناول أسلحته، واستدعى محاربيه الأكثر وفاءً. لكن أين يوجدون؟ فالأعمال الوحشية التي ارتكبها تفوق الحدّ. والاهانات التي وجّهها للناس لم تترك له حليفاً.

كان الفلاحون وأهالي المدينة يهتفون من داخل القصر ومن خارجه للأمير رومولوس وللأمير ريموس، ويطالبون جميعهم بالملك نوميتور العجوز الذي يعرف كيف يحكم بطيبةٍ وعدلٍ.

وجد الأمير آموليوس نفسه محاطاً بحشدٍ من الرجال يكرهونه ويريدون موته. فقُتل بأيدي أولئك الذين كان قد أذلّهم ووطأهم تحت قدميه واستبدّ بهم.



-٨-

حكاية النسور والمدينة المربّعة

سمعت الأميرة سيلڤيا من حجرتها حيث تمكث حبيسةً وكئيبةً، ضجة كبيرة. لقد دخل بعض الناس القصرَ وهناك من يقترب من غرفتها. . . من أتى، ماذا يجري؟ وبدا أمامها شابان رائعان حيّاها باحترام وقالا لها: - أيتها الأميرة سيلفيا، باركينا، يا أمنا! وعانقي ابنيك!

وثَبَتْ الأميرة سيلڤيا من الزاوية التي كانت جاثمة فيها، عند رؤية الشابين اللذين يشبهان كثيراً أخيها الميت. نظرت إليهما، وفهمت أن ولديها قد أنقذا بفضل الإرادة الإلهية. باركتهما وشكرت آلهة السماء التي جلبتهما إليها.

لكن ابنيّ الأميرة سيلڤيا لم يريدا البقاء أبداً في مدينة ألب مع جدهما نوميتور ووالدتهما. فقد شبّا أحراراً، ويعرفان القيادة، ولديهما الكثير من الأصدقاء يسكنون خارج مدينة ألب، كما أنهما يريدان تأسيس مدينة جديدة. أما الملك نوميتور فكان يودُّ لو يحكمان مكانه، لكن رومولوس وريموس أجاباه:

- أنتَ ملك مدينة ألب ويجب أن تبقى ملكاً. إننا شابان. وسنشكّل فرقةً جديدة كما يفعل النحل وسوف نؤسس مدينة جديدة.

ذهبا إلى ضفة «التيبر» بصحبة رفاقهما، إلى المكان ذاته الذي كانا قد أُلقيا فيه لتفترسهما الوحوش الضارية وحيث قام بإنقاذهما كلّ من الذئبة وفوستولوس.

وهناك، قاموا جميعاً ببناء منازل واستقبال كل من يريد الانضمام إليهم لبناء الدولة الجديدة. لم يكن لهذه الدولة اسماً بعد، لكنها عرفتْ نشاطاً كبيراً.

حفر الأمير رومولوس ورفاقه بالمحراث أربعة خطوط عميقة تشكل مربعاً وأطلقوا عليه اسم المدينة المربعة.

قال الأمير رومولوس لريموس:

- سيكون هذا المربع مركز المدينة، وهنا سيمكث المدافعون المسلَّحون والحراس.

أجاب ريموس:

- لايمكن لمركز المدينة أن يكون هنا، في الأسفل، فـ«الأتروريون» الماهرون في فن بناء المدن، يبنون قلاعهم دائماً على قمة التلال حيث يمكن السيطرة على الأراضي المجاورة ومراقبة اقتراب العدوّ من بعيد. لايمكن للحصن هنا أن يقاوم الهجمات.

أعرف مكاناً يعود علينا بكل نفعٍ: فقمة جبل «أڤانتان» موضعٌ قويٌّ، يصعب مهاجمته ويهيمن تماماً على الأراضي المحيطة كلها.

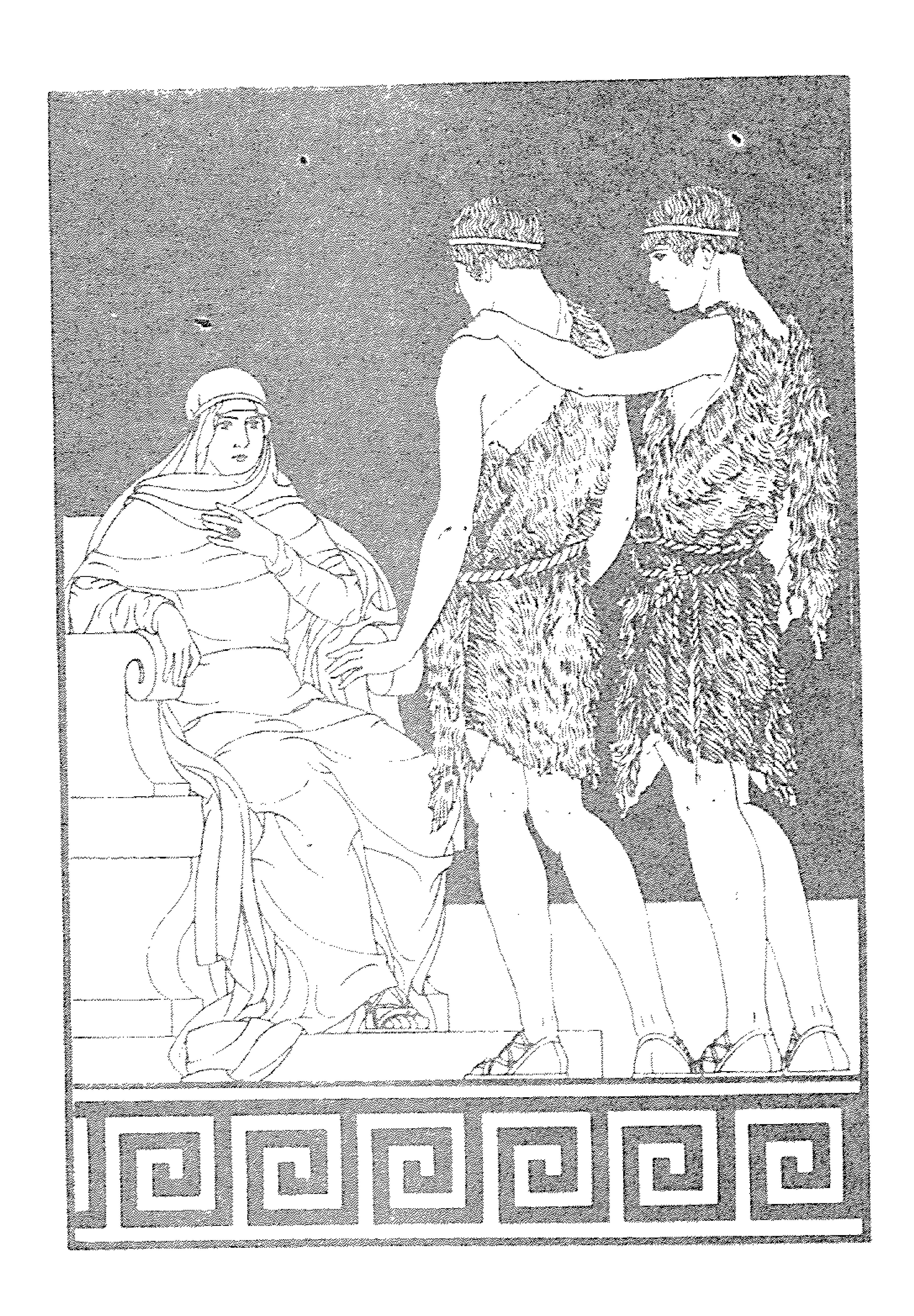
ردّ الأمير رومولوس:

- إذا بنينا المدينة على قمة «الأڤانتان»، فسوف نكون بعيدين جداً عن النهر، وأنت تعلم مدى أهمية القرب من الماء لحياة الرجال.

لكن ريموس لم يقنع بكلامه.

فقال رومولوس:

- لنستَشرِْ الآلهة، ونلجأ لاستخدام الفأل. أنتَ ريموس اجلس على هذه الصخرة واتجه نحو جبل «أڤانتان»، وأنا سأجلس على هذه الصخرة قرب «التيبر»



ونراقب السماء، ومن يرى أكبر عدد من النسور قبل تمام غياب الشمس يكون الرابح وسوف نقوم بما تأمرنا به الإرادة الإلهية.

لكن الأخوان لم يتفقا على عدد النسور التي كانا قد عدّاها قبل غروب الشمس. وهكذا قرّر الأمير رومولوس، خلافاً لرأي أخيه، مباشرةَ بناء المدينة الجديدة بمساعدة أتباعه الذين يفوق عددهم أتباع ريموس.

ونشبت بينهم معركة رهيبة انقضّوا فيها بوحشية على بعضهم البعض. وحصدتْ عدداً من القتلى، كان من بينهم الأمير ريموس شقيق رومولوس.

-٩-

حكاية العبدين والمَدين

منذ أكثر من ألفي عام، في فجر أحد أيام الربيع الصافي، كان هناك صبيين يمشيان عبر الغابات والسهول والبراري. ويتقدمان بصعوبة ينهكهما التعب والمرض. كان البكر يسند الولد الثاني الذي مازال طفلاً شاحباً وهزيلاً وبائساً.

- سرڤيوس، اتركني هنا، فنحن لانعرف الطريق التي ما تزال أمامنا قبل أن نصل، كما أنني لم أعدْ أحتمل!

- لن أتخلى عنك، حتى لو قُبض عليَّ معك وجُلدتُ حتى الموت!

تشجّع، بليستينوس، لم يبقَ أمامنا الكثير، وإذا ماوصلنا فإننا سننجوا نهائياً!

اقتربتْ منهما امرأةٌ تحمل سلة، وبقربها طفل صغير يمسك بذيل ثوبها. توقفتْ وهي تنظر بشفقة إلى هذين الغلامين، وسألها الولد البكر:

- هل تستطيعين أن تقولي لنا إذا ما كنّا في الطريق الصحيح، وكم من الوقت مازال ينبغي أن نسير قبل أن نصل إلى المدينة المربّعة وإلى المكان المقدّس لإله الملاجىء؟

أجابت المرأة:

- ليس بعيداً سوف تصلان قبل أن تبلغ الشمس قبّة السماء. لكنْ، كيف تجرؤ على جعل هذا الطفل يسير أيضاً؟ سوف يقع في الطريق إذا ما أرغمتَه على التقدم أكثر من ذلك.

قال سرڤيوس:

- سأحمله بين ذراعيّ. فأنا مستعجل للوصول.

قالت المرأة: «لن يجد كما أسيادكما، فنحن هنا على أرض المعتَقين، ولن يخاطروا بأنفسهم فيها... أنتما عبدان، أليس كذلك؟ أنا أيضاً كنت مثلكما فيما مضى.

لكنّ الأمير رومولوس يعرف كيف يدافع عن الذين يضعون أنفسهم تحت حمايته فمن يذهب إلى مدينته ويلمس معبد إله الملاجىء يكون من الناجين.

أجاب الولد البكر:

- لهذا السبب أريد أن أصل إلى هناك. فبمقدور السيد استعادتنا إذا ما عثر علينا هنا. ولديه جميع الحقوق علينا. تشجّعْ بليستينوس! سوف أحملك.

بينما كانا يتكلمان، وقع الولد الأصغر على الأرض من شدة الإعياء، وحينما حاول سرڤيوس انهاضه، سمعا صوت خطواتٍ أخذت تتضح شيئاً فشيئاً.

قال سرڤيوس:

- قسماً «بجوبيتر» إنهم يبحثون عنا. ثم أضاف: «إنه أحد أصدقاء السيد! لنختبىء.

لم يعد هناك وقت. اقترب الرجل واستطاع التعرّف عليهما.

سأل الرجل:

- ألستَ واحداً من عبيد «توليوس كلاوديوس»؟ ألستَ حاجبه؟ بلى، إنه أنت، لقد عرفتك. حتى أنك كنت مقيّداً في هذه الأيام الأخيرة. كيف استطعتَ الإفلات؟

وأين تذهب؟ إذا كنت ذاهباً إلى المكان المقدّس لإله الملاجىء، فلنذهب سويّة، فأنا ذاهبٌ إلى هناك أيضاً.

- أنتَ «بوبليوس سولبيسيوس»! لكن أولستَ رجلاً حرّاً؟ لمَ تهرب؟

لمَ أتيتَ إلى هنا؟

- حرّ، لم أعد كذلك، لهذا أهرب. فالديون كثيرة عليّ، ولم أعد أعرف كيف أردّ لسيّدك جزءاً صغيراً ممّا قد أقرضني. عندما أصبحت مَديناً بهذه الدرجة، كان يمكن أن أكون مجبراً على أن أصبح عبده. فهربتُ كي أحفظ حريّتي.

- حسناً فعلتَ. إنه لأمر رهيب أن يكون المرء عبداً، وتزداد رهابته عندما يكون عبداً، لتوليوس كلاوديوس.

- لكن من معكَ هنا؟

- إنه أخي، لقد جُلدَ البارحة أيضاً عشرين جلدة. لهذا فمن الأجدر المجازفة بالهرب أحياء كنّا أم أموات. أريد الوصول إلى الملجأ، لكنّ بليستينيوس لم يعد قادراً على ذلك، ولقد حملتُه كثيراً حتى أنني لم أعد أحتمل أنا أيضاً.

في هذه الأثناء، كانت المرأة قد جلبت بعض الحليب إلى بليستينيوس الذي كان ما يزال جاثماً على الأرض. وبينما كان القادم الجديد يضع الطفل على كتفيه، ويتهيأ ليعاود طريقه، عرضت المرأة عليهم: «عندما تصلون إلى معبد إله الملاجىء، ويأخذكم الأمير رومولوس تحت حمايته، عودوا إلى هنا، وسأعتني بأخيك حتى يشفى».

- الوداع! وليرافقكم الإله «ميركور»!

مشى «بوبليوس» و «سرڤيوس» طويلاً وهما يحملان «بليستينيوس» كل في دوره. إلى أن شاهدا أخيراً بعض المباني في طور الإنشاء، وبعض المنازل البيضاء الموزّعة هنا وهناك. فقال العبدُ:

- يا«جوبيتر»، وأنت يا آلهات السماء والأرض، آلهات العبيد والناس الأحرار، أحمدك وأمجّدك، وأتوسّل إليك أن تحمينا!

بلغت الشمس أوجها، لكنهم وصلوا أخيراً.

كان الأمير رومولوس، ورغبةً منه في زيادة عدد سكان المدينة التي ستنشأ، عَمَدَ إلى إخبار الشعوب المجاورة بأنهم سيجدون بين أسوارها ملجأً أميناً. وكل من تطأ قدمه المكان المقدس لإله الملاجيء تُعلَن حريتهُ إذا كان عبداً، ويُصفَح عن الذنوب المرتكَبة. وسوف يعاقِبُ سكانُ المدينة الجديدة كلَّ من يحاول أن يفرض حقوقه القديمة عليهم.

كانت البيوت المحيطة بالملجأ شبه مهجورة، فلم يكن هناك سوى بضع نساء وكاهن أمام عتبة المغارة المكرّسة للإله، حيث وضع «سرڤيوس» و«بوبليوس سولبيسيوس» الطفل الذي بدا ميتاً لشدة ما كان شاحباً ومُنهكاً. فاقتربتْ النساء، وسألت إحداهن:

- هل أتيتم أنتم أيضاً إلى الملجأ؟ ألم تسمعوا بالنبأ؟

- أي نبأ؟ سألها «بوبليوس» سولبيسيوس المدين.

- لقد قُتل الأمير ريموس. ولاندري من قتله. يدّعي البعض أنه قُتل على يد الأمير رومولوس نفسه!

- اسكتي، لقد قُتل على يد شخص يدعى «سيليريوس» وهو عامل إترووريّ. إضافةً إلى أن «سيليريوس» هذا قد اختفى فجأة.

- لقد استأجره الأمير رومولوس، فقد قال: «الهلاك لمن يجرؤ على إهانة روما!»

سأل «بوبليوس»، المَدين:

- لمَ المدينة مهجورة هكذا؟

- لقد ذهب الجميع لدفن ريموس على تلة «أڤانتان» حيث كان الأمير ريموس يريد أن يشيد المدينة المربّعة.

نظر العبد سيرڤيوس والمدين «پوبليوس سولپيسيوس» بذهول إلى بعضهما بعضاً لكنّ الكاهن الذي يقوم بالحراسة أدخلهما إلى المغارة ذلك المكان المقدس لاله الملاجىء وهناك أعلنت حريتهما وأصبحا مُعتَقين ومواطنَين حرّين في المدينة الجديدة. لم يعد أي شخص يستطيع أن يطالب «پوبليوس سولبيسيوس» بدفع ديونه، وفقد سيّدُ «سرڤيوس» كل حق يمارسه عليه وعلى أخيه، وكأنهما وُلدا من جديد، رجلين حُرّين، يحميهما إله الملاجىء.

في تلك الأثناء، عاد الأمير رومولوس من الـ «أڤانتان» حيث دفَن الأمير ريموس ورفاقه الذين قتلوا في المعركة. واتجه نحو «المدينة المربّعة» وعاود الحفر قرب النهر. وباشر أيضاً كل من «سرڤيوس» العبد السابق و«بوبليوس» المدين السابق، باشرا العمل أيضاً مع رجال الأمير رومولوس.

ثم أخذا بليستينيوس إلى الغابات، حيث تسكن المرأة التي كانت قد عرضتْ استضافته. قالت لهم المرأة بلا تكلّف:

- كنت بانتظاركم.

وعلى الفور، نام الطفل في السرير الذي كانت قد أعدّته له من أوراق الشجر والذي بدا له ناعماً وطرياً. ووعده أخوه و«بوبليوس سولبيسيوس» بالعودة.

وعند تماثله للشفاء، تعلم بليستينيوس أن يأخذ الماشية إلى المرعى، وأن يحلبَ الماعزوالغنم، وأن يصنع الزبدَ والجبنَ.

وكان الفتى سعيداً، إذ لم يكن مضيفوه يضربونه أبداً. وشيئاً فشيئاً التأمت جراحه. لقد كانت المرأة طيبة معه، وكان أخوه سرڤيوس يمر ليراه في أغلب الأحيان.

قال له ذات مرة:

- عندما يشتدّ ساعدك، ستأتي معي إلى المدينة، وسنبقى معاً إلى الأبد.

فأجابه بليستينيوس:

- نعم، عندما أصبح أقوى.

لكنه استمتع بهذا السِلْمِ، ووجد أن مثل تلك الحياة بين الماعز والخراف دون أن يضربه أحد، هي حياة سعيدة.

-١٠-

حكاية ولادة مدينة روما

أصبح «بوبليوس سولبيسيوس» و«سرڤيوس» صديقين حميمين خلال عملهما معاً في بناء المدينة الجديدة. تعلّم سرڤيوس النجارة، وأخذ يصنع المناضد والخزن والكراسي. وبسبب مهارته الفائقة في عمله، كان الجميع يلجأ إليه عندما يتعلق الأمر بنصب سقَالات، وبناء جسورٍ وحينما تعترضهم صعوبة ما.

قال بوبليوس سولبيسيوس، بينما كان يسير قرب سرڤيوس:

- غداً إذاً العيد الكبير!

- أجل! إن الحجر المربّع جاهز، ولقد أُخترتُ من بين الذين يجب أن يضعوه في المكان المخصص. سيكون حتماً مشهداً فخماً، ومناسبةً تُذكَرُ طويلاً، لذا أريد أن يحضر أخي أيضاً فهو لم يرَ عيداً مثله من قبل. يُقال أن اسم المدينة سيكون «روما». يبدو أن هذا الاسم ذو فألٍ حسنٍ، ويروق للأمير رومولوس.

- هل رأيت الكاهنين الجديدَيْن؟

- هذان اللذان وصلا من الشمال؟ أجل، لقد رأيتهما، إنهما شيخان محترمان جداً، يفيضُ وجهاهما نبلاً يبدو أنهما على درجة كبيرة من العلم. واستطرد سرڤيوس:

لقد تلقيا تعليمهما على يد القزم «تاجيت»

- تاجيت؟ لم أسمع أبداً بهذا الاسم. من كان؟

- في الحقيقة، لا أحد يعرفه تماماً، ولا حتى الكهنة الآخرون. يبدو أنه إتروري عجوز، ولا نعلم إذا كان رجلاً أم إلهاً، لكنه في جميع الأحوال، كان أكثر الكائنات علْماً، ولم يُوجد مثله قط. لقد وُلد من الأرض بالذات، فبينما كان أحد الفلاحين يحرث حقله بمحراثه، قفز قزم، شعره طويل أبيض من ثُلْمٍ كان قد بُدء بفتحه، وأخذ يتكلم. ويشرح مغزى طيران العصافير، وما الذي تريد الآلهة قوله إلى البشر عندما ترسل البرق والصاعقة والرعد. فيما بعد، أخذ يعلّم من تبِعه كيفية فحص أحشاء الحيوانات المقتولة أثناء التضحيات، فبذلك يستطيع أن يُطلع الناس على إرادة الآلهة، لمن يعرفون معناها. أمّا الأمير رومولوس الذي يريد إرضاء الآلهة، فلقد أحضر هذين الكاهنين ليستشيرهما في كل شيء ليتسنّى للمدينة الجديدة أن تنشأ تحت أفضل رعاية، وأن تزدهر لمدة طويلة.

- لكن، قُلْ لي سرڤيوس، من سيحمل الحجر المقدس معك؟

- سيكون هناك ذلك الأتروري القادم من ڤييه، إنه قوي جداً، فبضربةٍ من قبضة يده يستطيع أن يقلب ثوراً. وهناك أيضاً جبليّ من بلاد السامنيت، وآخر إيطاليّ. وأنا، اللاتيني، سأكون الرابع، فالأمير رومولوس يريد أن تكون هذه المدينة للجميع، وأن يسكنها ناس قادمون من جميع أصقاع العالم، وأن يشعر كلّ واحد أنه مواطن في المدينة الجديدة.

- أين ستضعون الحجر؟

- عند الزاوية المشكّلة من التقاء الطريقين اللذين سبق وقمنا بشقّهما واللذين سيكونان الأكثر أهمية في المدينة الجديدة. فأحدهما يذهب من الشمال إلى الجنوب، والاخر من الشرق إلى الغرب، أمام معبد «أبو للون» الذي يجري بناؤه.

قبل فجر اليوم التالي، غادر سرڤيوس إلى الريف يسعى في طلب بليستينيوس.

فوجد أخاه يقوم بحلب الماعز وجمع الحليب في أوعية من الخشب كان قد صنعها بنفسه في الشتاء، حينما لم يكن الطقس السيء يسمح بأخذ الماشية إلى الخارج.

شاهد «سرڤيوس» يدخل، فحيّاه بسرور:

- مرحباً يا أخي!

لم يَعُد أحدٌ يتبيّن في بليستينيوس صورة ذلك الصبي الهزيل، المغطى بالجراح وهو شبه مُشرف على الموت والذي جاء منذ عدة سنوات خلَتْ إلى هذا البيت المضياف، هارباً من العبودية القاسية. لقد كبر وأصبح مفعماً بالصحة، وغدت عيناه برّاقتان تشعّان فرحاً. أجابه سرڤيوس:

- مرحباً، بليستينيوس!

قدّم له بليستينيوس فنجاناً من الحليب الدافىء، وقطعة كبيرة من الجبن الذي كان قد حضّره بنفسه من حليب الماعز، وشريحة كبيرة من الخبز الأسود، كان قد طهاه في الليلة السابقة.

قال سرڤيوس وهو ينظر إليه:

- كم تبدو بصحة جيدة! خلال هذين الشهرين فقط اللذين لم أرك فيهما، تبدو لي الآن أكبر. لو أنك لم تتشجع تلك الليلة، وبقيت هناكَ عند السيّد، أين عساك كنتَ اليوم ياأخي؟

- كنت تحت التراب، في الجحيم! لقد كنت طيباً جداً معي يا أخي.

أن أكون رجلاً حراً! مايزال ذلك يبدو لي يومياً شيئاً جديداً ورائعاً. أحقاً لم يعد أحد يستطيع بيعي، أو ضربي، أو تعذيبي، أو قتلي؟

أشكرُ الآلهة أنها باركتني! فاليوم سوف أحمل «الحجر المربّع» إلى مكانه النهائي وسيُعطى اسمه للمدينة. سيكون عيداً كبيراً. واحتفالاً لم يُشهد له مثيل. لهذا أتيت أبحث عنك لأننا نحتفل بنشأة روما!

سأل بليستينيوس:

- وما هي روما؟

- روما، هو اسم المدينة الجديدة. يُقال أن هذا الاسم يجلب السعادة. ما تزال المدينة صغيرة، أصغر من مدينة ألب بالطبع، لكن الحكماء الاتروريون يتنبؤون بأنها ستستمر أكثر من ألفي سنة، وسيسكنها أناس قادمون من جميع أنحاء العالم. إضافة لذلك، لقد أطلقنا اسم «العالَم» على قلب المدينة المربّعة، حول الحجر المربّع. ستجلب كل ذريّة إلى روما بعضاً من تراب بلادها وترميه في الحفرة، وبالتالي يُقرُّ كل واحد فينا أن روما وطنه وأنها سيدة العالم. هيا يا أخي، تقدّم أمامي!

أنهى بليستينيوس حَلْبَ الغنمات وذهب يلقي التحية على عائلة مضيفيه، قبل أن يلحقَ بسيرڤيوس إلى المدينة.

قالت المرأة قبل أن يرحل:

- انتبه! يجب أن تكون في «فيغييه رومينال» قبل مغيب الشمس، فكما تعلم، اليوم هو عيد باليلي»، ولا تنسى أن اسمك سُجّل في السباقات. أجاب بليستينيوس:

- سأعود في الوقت المحدد!

توجّه سرڤيوس وبليستينيوس إلى المدينة. وكلّما تقدّما، كانا يلتقيان برجالٍ يرتدون أبهى ما لديهم من ثياب، قادمين من القرى والضيَع المجاورة، ومتّجهين إلى المدينة لحضور العيد.

بليستينوس نفسه بدا أنيقاً جداً: فقد ارتدى قميصاً بسيطاً من الصوف، كانت الراعية قد نسجتَه وحاكته له. وانتعل في قدميه صندلاً من الخشب متُقن الصنع، له أشرطة من الجلد لتُمسك بالقدم، كان قد صنعها بنفسه. فهنّأه سرڤيوس على عمله.

انضمّ الاثنان إلى «بوبليوس» في وسط الحشد الذي أخذ يكبر والذي كان مؤلفاً شبه حصرياً من الرجال. أين كانت النساء؟ استغرب بليستينيوس الذي لم يكن قد غادر قطّ الغابات والمراعي، ولم يكن يعرف عادات المدينة. فسأل:

- ألا يوجد سوى رجال في هذه المدينة؟ وبقي مع بوبليوس ليراقب العيد باعجاب بينما كان سرڤيوس قد غادرهما لينضم إلى ورشة العمل.

كان المكان على ارتفاع يُعطي منظراً واسعاً ورائعاً، فقد تجمّع المشاهدون حوله، وحُفظت الأماكن الأمامية للشخصيات الهامة، وأخلي مكان واسع في الوسط لإقامة الاحتفال. أجاب بوبليوس:

- لقد أتَتْ بعض النسوة، لكنهن قلّة، وللأسف.

فردّ أحد الرجال وكان يجلس قربهما على حجرٍ كبير، وقد أسعده أن يجد- مثل بوبليوس وبليستينيوس- مكاناً مريحاً وممتعاً لعقد حديث معهما: «ليس لدينا سوى عدد قليل من النساء». واستطرد قائلاً: «لكن ستأتي بعض النساء. إنني واثق من ذلك».

فأجاب شخص آخر عند سماعه ذلك:

- ولكن كيف ستأتي؟ ليس هناك نسوة، والحياة بلا امرأة، حياة كئيبة!

فقاطعه بوبليوس:

- أترون المكان المخصص للأمير؟ إنه ذلك المكان المرتفع في الوسط.

الأماكن في الجهة اليمنى مخصصة للكهنة، والتي في الجهة اليسرى للخيّالة، أترون الحجر المربّع؟

- إني أرى أخي سرڤيوس مع أربعة أو خمسة آخرين ويقربهم الحجر المربّع، ما الذي سيحدث الآن؟ هل تعرف الأمير رومولوس يا بوبليوس؟

- بكل تأكيد أعرفه! من لايعرفه هنا؟ ها هو.

أجل، لقد وصل الأمير رومولوس، كان وسيماً جداً فارع الطول، محاطاً بجنوده، ويتقدمه الكهّان. نظر الأمير إلى الحشد المتجمّع للاحتفال بمولد «روما» وما إن جلس في مكانه، حتى بدأ الاحتفال.

أحضرت الكاهنات الڤيستالية اللواتي ارتدين الملابس البيضاء، النار في أواني مقدّسة ووضعنها على المذابح، ثم أضفنَ إليها قطعاً من الحطب الجاف وأوقدن الشعلة. بعد ذلك قام الكهنة الشباب بذبح الأضحيات، ثم تفحّص الكهنة الكبار أحشاءها كي يقرؤون الطالع فيها.

- لقد قبلت الآلهة بالأضحيات!

- إنها تحمي المدينة الجديدة!

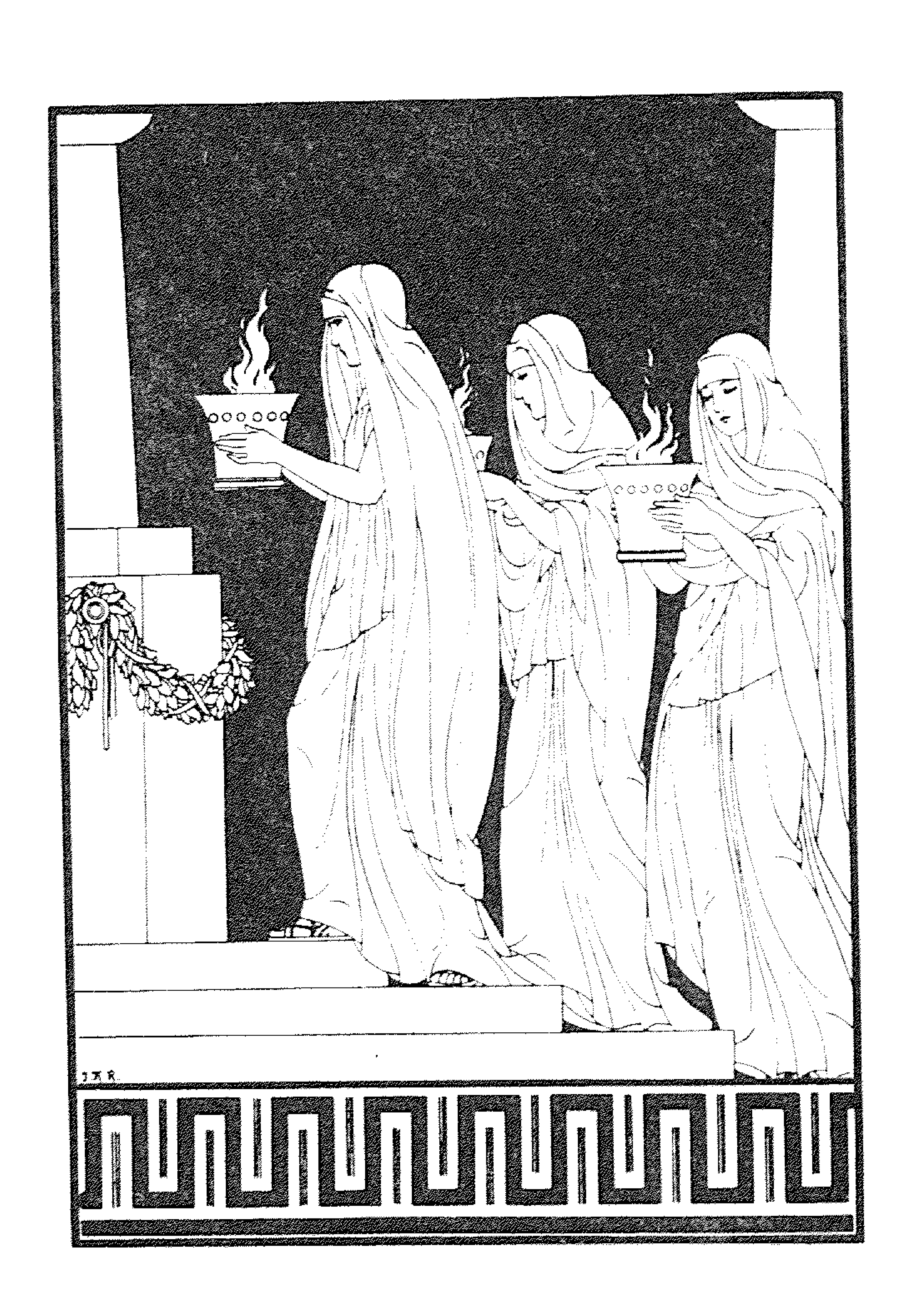
- ستجعلها كبيرةً وقوية!

- إنها تريد أن يكون اسمها روما!

ستحيا روما إلى الأبد!

- وسيهرع الناس إليها من كل أنحاء أيطاليا، ومن كل أصقاع العالم!

تلك كانت أقوال الكهنة بينما كانوا يتفحصون أحشاء الأضاحي، في حين كانت النيران تزفر فوق المعبد مرسلة ألسنتها الحمراء والمتموجة نحو السماء. عندئذ، هتف الحشد كلّه بصوت واحد:



- روما، روما، روما !تعيش روما، الآن وإلى الأبد!

ثم أحضر رجلان إلى الأمير رومولوس محراثاً كبيراً من البرونز تجرّه بقرةٌ وثورٌ أبيضا اللون. فساقه الأمير ضمن الثُلْم، وهو يرتلُ الصلوات، ومن خلفه يتبعه رفاقه في هدوء. وأخيراً، بارك الكهنةُ الحفرةَ.

ثم أخذ َكل واحد من العمال الذين اصطفوا ضمن مجموعاتٍ، حسب أصولهم برمي حفنة من تراب بلده في حفرة روما والعالم. فكان أولهم «السامنيت» وهم محاربون قادمون من الجبل، فألقوا إلى جانب تراب بلدهم، بقرن ثورٍ، يُمثّل رمز أصلهم.

ثم أتى «الهيربان» وهم سكان الغابات، وألقوا بالإضافة إلى تراب بلادهم جلد ذئبٍ وهو رمز أصلهم.

بعد ذلك، أتى الايطاليون، والأتروريون، والسابان. ومرّوا جميعهم وهم يردّدون أناشيد الغابات والجبال والسهول التي يعيشون فيها. أما أولئك القادمون من الساحل فقد جلبوا معهم أغاني البحر. وكانوا كلهم يرمون تراب بلدانهم ورموزهم في حفرة روما، ويرددون الأغاني، فيما يقوم الكهنة بمباركتهم. عندما ألقى ممثلوا جميع البلدان بتراب بلادهم، بدأ الكهنة والمحاربون بترديد نشيدٍ احتفالي يطلبون فيه من آلهة السماء والأرض مباركة روما المدينة الجديدة. ومنحها حياةً مديدةً ومجيدةً.

وجاءأخيراً دور الأمير، فرمى في الحفرة حفنة من تراب «الألب»، ثم بدأ الانشاد مع الكهنة والمحاربين:

«جوبيتر» يا أبا الناس والآلهة، وأنتِ يا «جونون» أمهم، وأنتَ يا «مارس» يا مَنْ يحمي المدينة بقوّتك، وشجاعتك التي تمنحهما للرجال،

وأنتِ «مينيرڤا» يامن تهبينهم الحكمة،

وأنتَ «نيبتون» يا إله البحر والمياه كلها،

وأنتِ «ڤينوس» يا من تجلب الجمال للعالَم، وأمٌّ «اينيه» البطل الذي وطأ شواطئنا منذ قديم الزمان وكان أبا ذريّتنا،

وأنتَ «أبو للون» يا إله الغناء،

وأنت يا «باخوس» يا إله النشوة والحبور يا مَنْ يجلب الخمر إلى العالم. . مشروب الفرح،

وأنتن يا آلهة الأرض يا من تعطين الثمار اللذيذة التي لايستطيع البشر أن يعيشوا بدونها،

«وأنتم جميعاً، يا آلهة السماء والأرض، والمياه والبحار، والنباتات والأزهار،

وأنتم يا أرواح الأموات الذين تحرسون بيوت الأحياء،

«انصتوا إلى صلاتنا، واحموا بيوتنا، ومدينتنا روما، هذه المدينة الحديثة الولادة، ولْتجعلوها كبيرة وقوية، وسيّدة الحضارة في العالم!»

ثم صمت الجميع، في حين رفع سرڤيوس ورفاقه الحجر المربع، رمز نشأة روما، ووضعوه في النقطة المحدّدة حيث يلتقي الطريقان- ذلك الذي يذهب من الشرق إلى الغرب مع الذي يذهب من الشمال إلى الجنوب.

- ها كم، سأطلق اسم «العالَم» على الحفرة التي تحيط بالحجر المخبأ، ذلك أن أجناساً كثيرة وعديدة أتت لتبني معاً المدينة الجديدة. وسأدعو هذه المدينة الجديدة باسم روما، راجياً من الآلهة أن تمنحها حياةً مديدةً ومجيدة على مرِّ العصور القادمة، من خلال رجال المستقبل الذين لانعرفهم الآن ولكنهم سيعرفوننا.

كان ذلك ما قاله الأمير رومولوس منذ أكثر من ألفي سنة، في يوم نشأة روما.

-١١-
عيد «الباليلي» أو عيد الرعاة

انتهى الاحتفال، كانت الشمس في الغروب تضيء الأرض كلّها ككرةٍ كبيرة من الذهب.

توسّل بليستينيوس أخاه الذي كان قد التقاه في قمة الجبل، أن يرافقه إلى ڤيغنيه رومينال حيث يُحتفل بعيد «باليلي» أي عيد الرعاة.

وكان هناك العديد ممّن يسيرون في الاتجاه ذاته الذي يسير فيه كلٌّ من سرڤيوس وبليستينيوس، فالاحتفال في هذه الأعياد كان يجري في أماكن عدّة، لكن سباق «الفيغنيه رومينال» حيث طلبتْ الراعيةُ من بليستينيوس أن يتواجد، كان يعتبر أفخم سباق على الاطلاق، ويجذب دوماً أكبر عدد من المتبارين والمشاهدين.

غربت الشمس، وانتشر ضوء وردي على التلال المنحدرة والبيوت الريفية الصغيرة، وعمّتْ السكينة الغابات والريف الروماني. أما العصافير فكانت تغرد بالآلاف قبل أن تأوي إلى أعشاشها التي تحميها الأوراق.

قال سرڤيوس:

- ما أجمل هذا البلد! حقاً إنّي أحبه.

وأضاف بليستينيوس:

- وأنا أيضاً. فقد حرّرنا من العبودية. إنّه الآن أغلى لدينا من ذلك البلد الذي وُلدنا فيه.

تابعا سيرهما في هدوء. وملأت السكينة التي كانت تلفّ الريف قلبيهما أيضاً. فجأة شعر سرڤيوس بحزن عظيم يجتاحه. كان يفكر في حياة الكد والعناء التي يعيشها، حياة عارية، كئيبة، دون أسرةٍ وبلا حبّ.

نعم إن أخاه يحبّه، وهو بدوره يبادله الحب أيضاً على الرغم من افتراقهما عن بعضهما البعض. ومع كل هذه المحبة إلا أنه كان يشعر بوحدةٍ قاتلة!

آه لو كانت بقربه امرأة، تُظهر له ذلك الحنان الذي لاتعطيه سوى الزوجات العطوفات، الحنان الذي يدفء القلبَ ويُلطّف العيش!

مدّ ذراعه على كتف بليستينيوس ليشعر بقربه أكثر، إنه تقريباً الشخص الوحيد في العالم الذي يخصّه. لكن بليستينيوس لم يكن يفكر سوى بشيء واحد وهو عدم الوصول متأخراً عن السباق.

أخيراً، لاحت لهما نيرانٌ عالية في الأفق. واصطبغت الأرض حيث غابت الشمس لتوّها بظلال ليلكيّة، وتراقصت النيران الحمراء القانية مضيئة السماء الصافية بخطوط وردية صفراء، ورمادية لؤلؤية.

قال بليستينيوس:

- لقد اشتعلتْ! بسرعة، لنذهب، بسرعة! لا أريد أن أفقد مكاني في المسابقة.

سرعان ما وصلا إلى مرجٍ تتوسطه شجرة تين معمّرة وكثيفة. هناك، كان الفلاحون والرعاة قد أشعلوا النار في ثلاثة أماكن على أبعاد متساوية.

كان مشهد هذا المرج وأوراق الشجر التي يغمرها ضوء القمر، ساحراً. لكنّ بليستينيوس لم يكن ينظر إلى القمر، ولم يكن يعير اهتماماً لجمال المكان، فرغبته الوحيدة كانت عدم الوصول متأخراً، فجرى لينضمّ إلى أصدقائه.

أما سرڤيوس، فقد ذهب يتفحّص الجوائز المخصّصة للمنتصرين. فالتقى بالراعية التي أوت بليستينيوس لديها، ورأى بقربها صبيّة فتيّة، لم يكن يعرفها، فسأل:

- من هذه الصبية؟

- إنها «سيرا» وهي تعرف أخاك جيداً، فلقد كانا يسوقان القطعان إلى المرعى.

قالت سيرا:

- بليستينيوس ولدٌ طيبٌ. ففي كل مرةٍ تشرد فيها إحدى الماعز ولا أستطيع اللحاق بها، يقوم هو بجلبها لي. إنه بمثابة أخي.

في تلك اللحظة، أُعطيتْ إشارة بدء السباق. فاقتربت الراعية، وكذلك سرڤيوس وسيرا.

قالت سيرا:

- يحدثني بليستينيوس عنك في أغلب الأحيان، ويقول أنك طيب جداً.

أمسك سرڤيوس يدها- كم كانت صغيرة في يده!- فيما كان المتسابقون يقفزون خلال النيران المتأججة، «وسيرا» قلقة، مترقبة، تنظر من سيصل أولاً.

لم يكن سرڤيوس يشعر بشيء آخر سوى تلك اليد، وقلبه يكاد ينقطع من شدة الخفقان.

وصل بليستينيوس أولاً، فهتف له الجميع، وهرعت «سيرا» تحمل له الجائزة المخصصة للمنتصرين وهي عبارة عن نعجة صغيرة.

تلا ذلك مسابقات أخرى. لكن سرڤيوس لم يكن ينظر إليها فقد كان يفكر بسيرا. شعر بحنان جديد وغريب يملأ قلبه ويغمره كلّه، وبدا له أنه لو استطاع العيش قرب «سيرا» فقد يصبح أسعد رجل في العالم.

ولدى مغادرته قال لسيرا:

- سأعود لأراك.

فأجابته: - عُدْ، سيسرّني ذلك جداً.

هكذا، اعتاد سرڤيوس، المواطن الحرّ الروماني، على ملاقاة سيرا الراعية، فكان يراها عدة مرات في المرعى في طريقه لملاقاة أخيه بليستينيوس.

ذات يوم تكلم سيرڤيوس مع سيرا وقال لها:

- سيرا، أنا أحبكِ. أتريدين أن تصبحي زوجتي! أتريدين أن تأتي معي إلى روما؟

- أذهب معك إلى روما؟ آه لا أستطيع! ما الذي سيحصل بنِعاجي وخِرافي الصغيرة؟

- لكنْ سيرا، تعلمين جيداً، أن بليستينيوس يستطيع أن يرعى نعاجك. كوني واثقة أنه سيعتني بها كما يعتني بنعاجه، وأنها ستصبح قوية جداً.

تمنّعت سيرا قليلاً، لكنها وافقت أخيراً، وغدت زوجة سيرڤيوس، ورافقته إلى روما.



-١٢-
نهار الإله «تيرم»

في روما، غدا سيرڤيوس شخصية هامة. فكان عمله في الخشب يزداد مهارة يوماً بعد يوم، مستمراً في صنع «السقالات» والجسور، والكراسي، والمناضد، والخزن، والأسرّة، وجميع أنواع الأثاث الخشبي. فرغب الناس أن يصنعَ لهم أثاثهم، لكنه لم يكن يقدر على تلبيتهم جميعاً. وبفضل نباهته وذكائه غير الاعتياديين، وذوقه الفطري السليم، كان يبتكر أشياء غاية في الأناقة طالما اشتهاها الجميع.

قرر سرڤيوس آنذاك أن يستخدم بعض المساعدين، فأحضر بعض الفتية وعلّمهم المهنة. وشيئاً فشيئاً، تعوّدوا أن ينفذوا بدقّة الأعمال السهلة والبسيطة، واحتفظ لنفسه بالأعمال الأكثر صعوبة. وهكذا، ازدهر مشغل سيرڤيوس مما سمح له بأن يمتلك بيتاً جميلاً في روما، مع غرفة كبيرة كان يستخدمها كمخزن للخشب وكمشغلٍ. كما امتلك حقولاً خارج روما، وماشية أمّنت له الحليب والجبن والزيت والخمر والحبوب. وقام في وسط تلك الحقول ببناء بيت سكنه بليستينيوس مع فلاحيه ورعاته.

كان بليستينيوس قد ترك العائلة التي استقبلته فيما مضى، وأصبح لديه عدداً كبيراً من النعاج والماعز، ولم يعد خادماً لدى الآخرين. بنى منزله الخاص بمساعدة

سيرڤيوس. وصار يعمل في الأرض، ويراقب الرعاة، ويجلب لأخيه حصته من جني الحقول ومن ناتج القطعان. وهكذا كان يزور سرڤيوس وسيرا التي كانت تسعدها رؤيته دائماً.

صار الناس يردّدون: «يا لسعادة سيرڤيوس! إنه محظوظ لأن يكون لديه زوجة!». فالزوجات في روما كنّ نادرات. إذ لم يكن هنالك إلا القليل من النساء ممّا أدى إلى أن يعيش الرجال كلّهم تقريباً وحيدين، شاؤوا أم أبوا.

شيئاً فشيئاً، أخذ عدد الرجال القادمين يزداد يومياً، وقد جذبهم المكان المقدس لإله الملاجىء، والحماية التي يؤمّنها الأمير رومولوس.

لقد كانوا رجالاً مثل سرڤيوس وبليستينيوس وپوبليوس، فرّوا من وطنهم ليفلتوا من عقوبة ما، أو يتخلصوا من العبودية، باحثين عن مأوى في روما.

أمّا النساء فلم تحضر إلا قلّة قليلة منهن. وكنّ يعملن ضمن بيوتهن في النسج والحياكة، لذا توجب على الكثير من الرجال أن يقوموا بالنسج والحياكة أيضاً، إذ لم يكن هناك عدد كافٍ من النساء.

كان بيت «سيرفيوس و«سيرا» ساحراً، يضم داخله فناءً تتوسطه فسقيةٌ. ولم يكن ينقصه شيء. ففي المطبخ كانت المواعين مصفوفة بشكل مرتب. وفي الغرفة سرير كبير من الخشب مزوّد بأرجلٍ برونزية وبسيّر لوضع الفراش عليه. وكان ذلك الفراش من الصوف الجيد المجزوز في الربيع من أجود النعاج الموجودة في القطيع. كذلك كانت الأغطية من الصوف الجيد الذي غزلته وحاكته ربة المنزل.

كانت «سيرا» تنتظر مولوداً، وكانا سعيديْن بذلك جداً فقد هيّأتْ أقمطةً جميلة، بينما صنع سرڤيوس مهداً بهيأة قارب كي يتمكّن من وضع الطفل فيه بأكبر قدر من السهولة، وركَنَه على الأرض بجوار السرير الكبير.

كان الوقت في نهاية الشتاء. أخذ النهار يطول، والصباح يصبح صافياً وكانت نفحات الربيع تأتي من كل صوب، فقد انتشرت البراعم الخضراء على إحدى الشجيرات في حديقة سرڤيوس.

تأخر الوقت، لكن مازال بالإمكان الرؤية، لذا كان سرڤيوس في مشغله تحيط به الجسور والأخشاب من كافة الأنواع، يُنهي زخرفةَ منضدةٍ من أجل الأمير، بينما العمال يغرسون المسامير ويصقلون وينشرون تحت إشراف المعلم وأوامره. في تلك الأثناء، دخل بليستينيوس وقال:

- مرحباً، أخي!

- مرحباً! أهلاً وسهلاً! أجابه سيرڤيوس قاطعاً عمله ليراه، تسعدني رؤيتك! لكن كيف استطعت ترك الحقول، وغداً عيد الإله «تيرم»؟

- لهذا بالتحديد أتيتُ. يسرّني جداً أن تذهب معي غداً إلى هناك. فأنا وحيد تماماً! ستأتي، أليس كذلك؟

ألقى سرڤيوس نظرة حوله، على العمل والعمال.

- نعم، يسرّني أن أقضي يوماً معك وأن أحضر العيد. «سيرا» على ما يرام فهي نشيطة وأستطيع أن أتركها وحدها.

قال بليستينيوس:

- سنغادر غداً، قبل شروق الشمس.

وفي الصباح التالي، توجه الأخَوان إلى الحقول.

كان الريف الروماني جميلاً في تلك الساعة. وكانت روائح الربيع العطريّة تنبعث من السهل المتماوج.

شاهد الأخَوان المنزل الأبيض الصغير في وسط الحقول، وقد وُضعت أمامه على منضدة مصنوعة من الأحجار الريفية، القرابين المخصّصة للإله «تيرم» وهي عبارة عن أكاليلٍ من الأعشاب والزهور، وحُزَمٍ من الحبوب، وأنواعٍ من الكعك، والفواكه، إلى جانب الخمر والعسل. وأحاط الفلاحون والرعاة بهذه المنضدة.

كان عدد الذين يعملون في الحقول ويرعون الماشية خمسة رجال. قالوا:

- مرحباً يا معلم!

وتذكّر سرڤيوس وقتاً ليس ببعيد جداً، لم يكن فيه السيّد بل عبداً مهاناً ابن عبدٍ مهانٍ. وتذكّر أهله بصعوبة، فقد كان صغيراً عندما أُخِذَ منهم، وتمّ بيعه.

من يدري إنْ كانوا أمواتاً أم أحياء، يجلدهم أحد السادة الأشرار!

كان سيرڤيوس يفكر بذلك في أغلب الأحيان، لذا تراه طيباً مع خدمه الذين لم يفكروا بالهرب أبداً، فقد كانوا متأكدين أنهم لن يجدوا سيّداً أفضل منه.

قال سرڤيوس:

- أرى أن كل شيء جاهز للاحتفال. حسنٌ جداً! أين الأضحية؟

- ها هي! أجابه أكبر الخدم سناً، جالباً نعجةً بيضاء سمينة، مغسولة جيداً ومزيّنة بإكليل من الورود حول عنقها، فبدت جميلة وقوية، وسليمة، وهذا يعني أن القربان سيُرضي الإله «تيرم».

أخرج خادمٌ كميةً من الجمر المشتعل من الموقد، ووضعها في الآنية المعدّة لها. وحمل خادمٌ ثانٍ صخرة كبيرة على كتفيه، وأمسك آخرون بالحنطة والكعك، والأكاليل، والفواكه، والعسل، وأخذوا يمشون جميعاً.

في المقدمة، مشى سرفيوس وبليستينيوس ومعهما النعجة، ثم تلاهما العبيد، بعضهم خلف بعض، من الأكبر إلى الأصغر.

وصلوا إلى حدود الحقول المزروعة، وقاموا بدَوْرَةٍ حول الحفرة التي تحدد مساحة الملكية، وهم ينشدون ويثنون على الإله «تيرم» ويهددون من يقتلعه من مكانه بأشدّ العقوبات.

- من يلمس الإله «تيرم» بمحراثه، يُكرَّسُ هو وثيرانه إلى آلهة الجحيم!

- لن يجرؤَ أحد أبداً على طردك أو إهانتك، أيها الإله «تيرم»، يا مَنْ تدافع وتحمي أملاك الناس على الأرض، لذا، فكل واحد منا سيظل يحترمك إلى الأبد!

- واليوم، في هذا اليوم المكرّس لكَ، نهديك ثمار الأرض التي زرعناها تحت حمايتك!

عندما وصل سرڤيوس، وبليستينيوس، والفلاحون إلى تخوم المِلْكية، حفروا الأرض ووضعوا الصخرة الكبيرة التي تمثّل الإله «تيرم» وزينوها بالأكاليل والورود. ثم استعدوا للتضحية.

أمسك بليستينيوس النعجة السمينة وثبّتها، وقام سرڤيوس بجزّ عنقها فتدفق دمها، وسال وانتشر في الحفرة.

- هذا الدم لك، أيها الإله «تيرم»! إننا نقدّمه لكَ.

- والآن، لِنضعْ يا «تيجيللينوس» الجمر في الحفرة.

ورمى العبد «تيجيللينوس» الذي كان يحمل الجمر، رماه في الحفرة، حسب أوامر السيّد. وقام العبيد الباقون بعد أن تلقوا أوامرهم برمي الثمار المجففة، والزيت، والعسل، والحبوب، والكعك، في النار، فارتفعت ألسنتها، والتهمت القرابين. عندئذ، وضعوا الحجر الكبير المزيّن فوق الرماد الحار وهم ينشدون :

- أيها الإله تيرم، احفظْ هذه الأرض!

- احفظ الأرضَ والرجال، أيها الإله تيرم!

ثم عاد الرجال السبعة إلى البيت وهم يغنون، وهناك أكلوا لحم النعجة التي ضحوا بها وشربوا النبيذ الصافي.

فيما بعد، قضى سرڤيوس النهار كلّه يتجوّل مع بليستينيوس في الحقول، يراقب الأعمال، ويعطي الأوامر والنصائح. وعندما اقتربت الشمس من المغيب عاد سرڤيوس إلى المدينة.

قال الخدم سوية: - سلاماً، أيها المعلم!

رافق بليستينيوس أخاه حتى نهاية الحقول. وأسرع سرڤيوس خطاه حتى وصل المدينة حيث كانت سيرا بانتظاره.

-١٣-

سرڤيوس يصبح أباً ومعلماً

مرّت الأسابيع، وعادت السنونو. تساءلت «سيرا» من أين يمكن لهذه السنونو أن تأتي: حتماً من بعيد، من وراء البحر! أحياناً كان يأتي إلى روما بعض الغرباء على متن مراكب كبيرة يمخرون المياه بقوة أذرعهم التي تسحب المجاديف، أو بواسطة الأشرعة التي تنفخ فيها الريح. ولقد سبق لسيرا أن رأتهم عدة مرات.

كانوا يتكلمون عن أراضٍ بعيدة، وشعوبٍ مختلفة. من المؤكد أن السنونو تذهب إليهم لقضاء أشهر الشتاء حين يكون الطقس بارداً في روما، وعندما تُخرج سيرا الأغطية والملابس السميكة من الخُزن التي صنعها سرڤيوس إلى جانب فَرْوَتَي الثعلبين الكبيرتين اللتين أهداهما إياهما بليستينيوس.

لكنّ السنونو عادت الآن، وبنت اثنتان منهما عشّهما داخل شقّ في جدار الفناء. وفي الدار، كان المهد الفارغ ينتظر قدوم المولود، من تراه سيرى النور أولاً فراخ السنونو أم الطفل؟

فقست فراخ السنونو أولاً، وعندما سمعتها «سيرا» أخذت تفكر بطفلها، وتستغفر له آلهة البيت.

كان البيت مُضاءً دائماً، فسيرا لم تكن تترك أضواءه تنطفىء أبداً كي تبقى الآلهة فيه بطيبة خاطر جالبةً له السلم والفرح. وكثيراً ما كانت «سيرا» تتوجه إليهم

طالبةً منهم أن يأتيَ طفلها وسيماً وقوياً، وتبتهل إلى الإله «ڤاتيكان» لتكون صرخة الطفل الأولى واضحةً، ومجلجلة، وذات فأل حسنٍ، مثل زغردة السنونو.

وُلد الطفل، كان صبياً، وكانت صرخته الأولى، كما تمنّت «سيرا» واضحة ومجلجلة.

فرح سرڤيوس أشد الفرح لحصوله على هذا الطفل، فحمله فوراً قرب الموقد ورفعه بين ذراعيه ليقدّمه لآلهة البيت، راجياً منها أن تحسنَ استقبال المولود الجديد. ثم حمله إلى «سيرا».

كانت «سيرا» أسعد امرأة في العالم. فكانت ترضعه من حليبها، وتحفظه دافئاً في لفائفه، وترقده في المهد الذي على هيئة قارب والذي كان سرڤيوس قد صنعه بعناية فائقة. وكانت تغني وتهدهد له راجيةً الآلهة الكبيرة منها والصغيرة أن تحميَه دوماً.

بعد تسعة أيام من ولادة ابنه، ذهب سرفيوس يستدعي أصدقاءه ليحتفوا بالطفل ويحضروا الاحتفال الديني الذي يجب أن يُقام كما درجت العادة لاستقبال الطفل كما ينبغي، في منزل أبويه.

في ذلك اليوم، دعا سرڤيوس ووجهه يشعّ فرحاً المدعوّين ليتعرّفوا على ابنه الوسيم. ثم صلّوا جميعاً لآلهة البيت كي تسمح للرضيع بأن ينموَ جميلاً ومعافى، وأن يخلّد اسم العائلة بعد وفاة سرڤيوس، ويسكن في البيت ويقدّم الأضاحي إلى الآلهة، والطعام الجنائزي إلى أمه وأبيه الميتين، فبعد موتهما، وكما كان يُعتقد آنذاك- سيعودان ويسكنان قرب الموقد الذي كانا يبقيانه مشتعلاً طوال فترة حياتهما.

سكب سرڤيوس شحم الخروف والزيت على الشعلة المتلألئة في الموقد، فاشتعلت النار بفرحٍ، واتّقدت بشكل لم يسبق له مثيل. ثم أخذ يشدو واقفاً أمام الموقد:



- احفظ ابني يا إله الموقد!

- وأنتَ، أيها الإله «فابولان»، دعه ينطق أول كلمة، ولْتكن ذا فألٍ حسن!

- وأنتِ، أيتها الإلهة «كوبا» احفظيه هادئاً في مهده، دون أن يحلم أحلاماً مزعجة!

- وأنت، أيها الإله «ڤاتيكان» يا مَنْ أعطاه الصرخة الأولى بعد ولادته، احمِه أثناء حياته!

- وأنتِ، أيتها الإلهة «دوميدوكا» أرجعيه سليماً ومعافى في كل مرة يخرج فيها من البيت!

بعد الانتهاء من الترتيل، قُدِّم الطعام والشراب إلى جميع المدعوين، وكان يتألف من الخمر الصافي، والحليب، ولحم النعجة المذبوحة على شرف آلهة المنزل احتفالاً بقدوم الطفل السعيد في منزل أبيه. فأكلوا اللحم، وشربوا الخمر، ثم استأذنوا بالانصراف وهم يدعون لابن «سرڤيوس» و«سيرا» الصغير.

بيْد أن روما كانت تكبر أكثر فأكثر، وكانت قوة الأمير رومولوس تزداد يوماً بعد يوم، ذلك أنه دعا شباب روما وجمعهم كلهم في جيش كبير، فجعل كل أولئك الذين يمتطون الجياد بشكل جيد ضمن فرقة الخيّالة، وشكّل من الباقين فرقة المشاة.

ثم جمع الأمير «رومولوس» وجهاء روما، ورفاقه الذين ساعدوه منذ البدء في تشييد المدينة، ومنحهم مراتب الشرف والسلطة، وكانوا بمثابة الآباء «لروما»، فأطلق عليهم لقب النبلاء. بعد ذلك، جمع أمهر الحرفيين ومنحهم مراتبَ شرفٍ، وحقوقاً وسلطة على الآخرين، مع أنهم من طبقةٍ اجتماعية أقلّ رقياً من طبقة النبلاء.

وأُطلق على هؤلاء الحرفيين الماهرين والبارعين في صنعتهم اسم «معلّمين»، وعلى من يتعامل معهم اسم «زبائن».

وكان سرڤيوس من ضمن أولئك الحرفيين، فغدا واحداً من أهم المعلّمين الذين يُقصَدون نظراً لسداد آرائه ونصائحه. كما حُظِيَ باحترام الجميع لأنّ الأمير يقدِّره، فقد اختاره من بين الآخرين وأوكَل إليه مهام فخريّة عدّة.

بيد أنه كان محترماً خاصة لأنه طيب، وذكيّ، وكريم، ويحمي ويساعد زبائنه في جميع المناسبات.



-١٤-

حكاية نساء روما

مضت سنة . وازدهرت أعمال سرڤيوس . كان يهتم بالأمور العامة اهتماماً شديداً . ويدير أيضاً دقة عمله بذكاء لايعرف الخمول . فكانت قطع الأثاث تُشترى قبل أن تخرج من مشغله ، وازدادت أعداد ماشيته ، وفاض ما تجلبه أراضيه إليه مما جعله يبيع الفائض من الخمر والزيت والحليب والجبن .

نَمَتْ روما ، وأخذت أعداد السكان تتزايد فيها ، لكن لم تأتيها النساء مطلقاً . وأقلقت الأمير رومولوس فكرةَ أن روما لن تستمرَّ إذا لم تَقُمْ فيها أُسَرٌ وعائلات كي يصبح لدى مواطني اليوم أولاداً يصبحون بدورهم مواطني الغد .

لذا ، استدعى الكاهنين الإتروريَيْن اللذين سبق لهما أن علّماه القوانين الدينية والبشرية وزوّداه دائماً بالنصائح الحكيمة .

- إني احتاجكما أيها الكاهنان . صحيحٌ أن روما غَدتْ مدينة كبيرة وقوية كما تنبأتما . لكن النساء تنقصها . فماذا علينا أن نفعل؟

فكّر الكاهنان ملياً ، وقال أحدهما :

- اخترْ خمسين شاباً من بين أجمل وأذكى الشباب في روما ، وأرسلهمْ إلى المدن المجاورة واطلب منهم أن يختار كل واحد منهم زوجة ، وليصطحبها معه إلى هنا ولَيؤسس أُسْرَةً . وهكذا يُشكلون خلال بضعة شهور خمسين عائلة .

اتّبَعَ الأمير رومولوس نصيحة الكاهنيْن، وأرسل خمسين شاباً ليختار كلّ واحد منهم زوجة له.

غادر الشباب الخمسون، وبعد ثلاثة أشهر، كان الأمير رومولوس والكاهنين بانتظار عودتهم مع زوجاتهم في معبد «أبوللون» عاد منهم عشرون فقط، ولكنْ بلا زوجات. فطلب الأمير رومولوس منهم أن يخبروه عن نتيجة رحلتهم.

- أيها الأمير، لم يمكننا تنفيذ الأمر الذي طلبته منا. أجل، هناك العديد من الفتيات، وهنّ كثيرات لدى الشعوب المجاورة. لكن مَنْ يودُّ أن يعطينا نساءه؟ وأية فتاة تودُّ أن تلحقَ بنا؟ لقد رفض آباؤهن، وإخوانهن، ورفضن هنّ أيضاً ذلك الأمر. إليكَ كيف استقبلونا: «أنتم، أيها الرومان» من أنتم؟ أنتمَ شعب من الرعاع الخارجين عن القانون ممّن ارتكبوا الجرائم وفرّوا بحثاً عن ملاذٍ. لن نعطيكم بناتنا، ولن يصبحن أبداً مواطنات روميّاتٍ، إطلاقاً!».

- لكنكم كنتم خمسين شاباً، والآن لستم سوى عشرون، فماذا حصل لرفاقكم؟

- رفاقنا؟ آه، أولئك، نعم، لقد اختاروا فتيات لهم، لكنّ الاتفاق كان ذاته بالنسبة للجميع: يتزوجوا منهن شرطَ بقائهم في بلادهن وعدم اصطحابهن معهم. فوافقوا، وتزوجوا من مختلف الشعوب وأصبحوا ينتمون إلى تلك الشعوب.

وهكذا، رأى الأمير رومولوس أن نصيحة الكاهنين لم تكن جيدة. فهي لم تجلب النساء إلى روما فقط بل انتزعت ثلاثين شاباً ومن خيرتهم أيضاً!

فاستشاط رومولوس غضباً، وطرد الكاهنيْن من الخدمة.

إثر ذلك، استدعى نبلاءه المئة، الذين أتوا معه من مدينة «ألب» وساعدوه في بناء المدينة، وطلب مشورتهم.

- أيها النبلاء، أنتم أخوتي وأصدقائي منذ صبايَ. وكنتم رفاقي المخلصين قبل وضعِ الحجر المربع في روما. لذا استدعيتكم. اليوم، روما كبيرة، وقوية ومزدهرة لكن كيف ستكون غداً؟ إننا بدون زوجات وبدون أطفال، وسوف تخلو روما من السكان، ويذهب عملنا في بناء المدينة هباءً. لقد طلبتُ النصحَ من الكاهنَيْن وتبعت نصيحتهما فجاء العلاج أفظع من المصيبة. والآن أتوجّه إليكم. ماذا نفعل؟

تناقش النبلاء وفكروا ملياً، وأخيراً خلَصوا إلى النصيحة المطلوبة:

- اختر عشرة سفراء من الرجال الحكماء، يعرفون التحدث إلى سكان الشعوب المجاورة واقناعهم بأن يعطوا بناتهم إلى شبابنا. وسوف ينصتون لكلامهم.

بحث رومولوس بين النبلاء المائة عن أحكمهم ممن يعرفون الكلام والاقناع بشكل جيد كي يذهبوا في وفد رسمي إلى الشعوب المجاورة لاقناعهم باعطاء بناتهم كزوجات للشباب الرومان. فاختار عشرة وقال لهم:

- اذهبوا إلى الشعوب المجاورة؛ وقولوا لهم أنْ يدعوا بناتهم كزوجاتٍ لشبابنا. وستُعامل بناتهم كالملكات في بيوتهن، وسوف تحترمهن القوانين والرجال، وسيقتصر عملهن على غزل الصوف. قولوا لهم بأن الأمير رومولوس يعدهم بذلك ويعرض تحالفه معهم في الدفاع عن أراضيهم، والتصدّي لأيّة إهانة. اذهبوا، تكلموا، واقنعوا. وعودوا في غضون شهرين، أمام معبدِ «أبوللون»، حيث يوجد الحجر المربّع.

غادر السفراء العشرة، وبعد مُضيِّ شهرين عادوا جميعهم واجتمعوا أمام معبد «أبوللون».

- أيها الأمير، يؤسفنا أن نقف هكذا أمامك. لكنْ، لم ينجح أحدٌ منا. إليكَ ما سمعناه: «أنتم أيضاً أيها الرومان غادرتم بلادكم لتفلتوا من العقوبات التي كنتم تستحقونها. كيف لنا إذاً أن نرغب في التحالف معكم؟ وكيف سنصدق كلامكم؟ لن نعطيكم بناتنا مطلقاً!» هذا ما قالوه لنا، ولم يكن بالامكان إجراء أيّ اتفاق!

إثر سماعه هذه الأقوال، استدعى الأمير رومولوس فرسانَه الثلاثمائة، وكانوا جميعاً شباباً يمتلئون حياةً وتشوقاً للحركة.

- أيها الفرسان الشباب، ترون اليوم روما كبيرةً وقويةً. لكنها ستؤول سريعاً إلى صحراء. إذ ليس لدينا أطفالاً ليصبحوا مواطني الغد. ولا يريد سكان البلدان المجاورة أن يعطونا بناتهم ليصبحن زوجات ومواطنات في روما.

ارتفع هرجٌ كبير بين جميع أولئك الشباب الوسيمين والأشدّاء.

- أيها الأمير رومولوس، لسنا بحاجة إلى أن يُقْبَلَ بنا، ولايهمنا من سيقبل بنا، سنغزو نساءنا! اعطنا الأمر بذلك، دعنا نذهب، وسنجلب نساءً إلى روما!

قال الأمير رومولوس: «أتنسون أنكم بهذه الطريقة تجعلون الشعوب المجاورة أعداءكم؟

- وما يهمنا الأعداء؟ إن عددنا كبير، ولانخشاهم. سنقاتل وسننتصر.

اسمح لنا أن نغزوَ زوجاتنا بأنفسنا!

قال الأمير رومولوس:

- أسمحُ لكم بذلك. لكن كيف السبيل للوصول إليهن؟ هل ستدخلون بيوتهن وتخطفونهن؟ إنكم ستُذبحون جميعاً قبل أن تروهن.

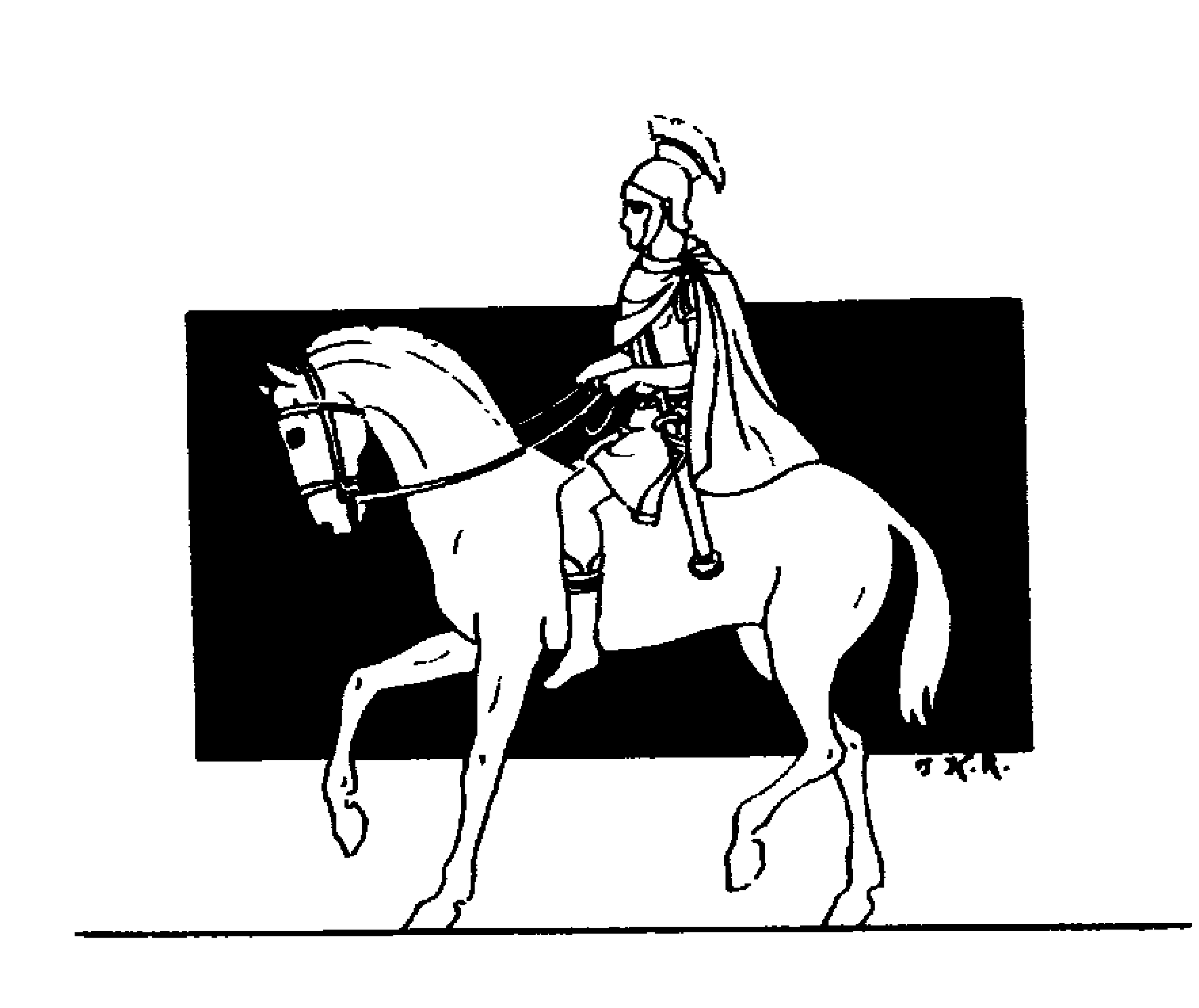
صاح أحد الشباب :

- فلْتأمرَ بإقامة احتفال كبير ، وليكن فخماً ورائعاً بشكل لم يسبق له مثيل .

إنّ النساء لا تتخلّفن عن الاحتفالات . ولتكن على ثقة أيها الأمير أن روما ستكسب في ذلك اليوم ما لايقل عن ثلاثمائة مواطنة جديدة اللواتي سيصبحن زوجاتنا .

قال الأمير رومولوس :

- ليكن ذلك!



-١٥-
عيد المجلس

أوفى الأمير رومولوس بوعده، وأخذ يستعدّ لإقامة عيد بالغ العظمة لم ترَ عينٌ مثله قطّ. وبعث برُسُله لدعوة السكان المجاورين مع نسائهم وبناتهم على النحو التالي:

- لقد اكتشف الأمير رومولوس هيكلاً قديماً جداً في روما، كان مطموراً في أعماق الأرض، وقدّمه إلى إله المجلس. سوف يُدشَّنُ هذا الهيكل ضمن احتفالات رسمية لم يسبق لها مثيل. إنه يدعو جميع الأهالي كي يحضروا ويروا مدى جمال وقوّة وغنى مدينة روما. وسوف يقدم العديد من الأضاحي، وتجري المسابقات والمباريات والنزالات ومبارزات الفرسان. إنّ الأمير رومولوس يدعو جميع الأهالي لحضور هذه الاحتفالات، فإله المجلس قويٌّ، وروما كبيرة!

وهكذا، أقيم احتفال كبير للمجلس بعد مضي أربع سنوات، وأربعة أشهر، وأربعة أيام على ذلك اليوم الشهير الذي شهد ولادة مدينة روما.

وكلّفَ «سرڤيوس» بأن يَعُدَّ العدّة لذلك.

كان المكان الذي سيقام الاحتفال على أرضه ذا مساحةٍ واسعةٍ جداً، نُصبَت حوله المنصّات، والأروقة المزيّنة بالأكاليل. وأقيمت في إحدى الجوانب شُرفاتٍ

للأمير ومستشاريه، والنبلاء والشخصيات الهامة الأخرى. وعلى جانبي هذه الشرفات كان هناك مكان مسورّ خُصّص للفرسان الثلاثمائة الذين كانوا على أهبة الاستعداد لانتزاع الفتيات حسب إشارة متّفق عليها لا يعرفها سواهم.

في اليوم المرتقب، احتشد المشاهدون كلّهم حول الساحة الكبيرة وكانوا بشكل أساسي شباباً وفتياتٍ دفعهم الفضول للتعرّف أخيراً على هذا الشعب الجديد الذي كثُرَ الحديث عنه. أبدى المشاهدون اعجابهم بمنصّات الأمير رومولوس ومستشاريه الغنيّة بالزخارف، ورأوا الهيكل الجليل المنتصب عالياً، للتضحية، و الموَجّه إلى إله المجلس. وكان هنالك سياج حصين من أوتاد الأخشاب يفصل بين ميدان الألعاب وأماكن المشاهدين. بينما أخذ الفرسان يجوبون هنا وهناك، يساعدون كل شخص في ايجاد مكانه، ويحتفظون بأفضل الأماكن للفتيات.

ظَهَرَ الأمير يرتدي معطفاً أحمر اللون مرصّعاً بالذهب، يرافقه مستشاروه ومن ورائهم الكهنة والنبلاء. جلس في مكان الشرف، وهو مكان مرتفع كي يراه الجميع، بينما كان الفرسان يقفزون على ظهور جيادهم الرائعة.

سأل أحد الحضور شاباً رومانياً يجلس قربه:

- من كل هؤلاء الرجال الذين يحيطون بالأمير؟

أجابه الروماني:

- إنهم مستشاريه الذين يسنّون القوانين، وندعوهم بالشيوخ الأشراف، فالأمير يأخذ برأيهم كثيراً. أمّا الآخرين الذين يجلسون بقربهم فإنهم النبلاء، إنهم قادةٌ أيضاً. وجيمعهم أصدقاء للأمير، كما أنهم أثرياء جداً، يملكون العديد من البيوت والقصور والأراضي والمواشي. إلا أن الفرسان حالياً يتمتعون بالحظوة لدى الأمير.

- هيه! انتباه، لقد بدأ العرض.

- قبل العرض، ستتم حتماً بعض التضحيات لإله المجلس.

- مُحـتـمل. آه نعم، أترى هناك، أولئك الكهنة الذين يدورون حـول الهيكل؟

- إنهم يحملون القرابين للتضحية.

- نعم، نعجةٌ، وخنزير.

- الدم يسيل على الهيكل. الآن، إنهم يمزجون الحليب والخمر.

تمّت التضحية، وأُنشدت الأناشيد في مدح الإله. وبدأ العرض. وافتُتِحَ بنزالٍ بين أفضل بطلين في روما. وهما «مارك» و«سيكست».

كان سيكست طويلاً وضخماً، له عضلاتٍ أشبه ماتكون بمجموعة حبال ثخينة، أمّا مارك فقد كان أقصر بكثير منه لكنه كان رشيقاً وخفيف الحركة.

اتّخذ الرجلان وضعية التهيؤ للهجوم مقابل بعضهما البعض. ولدى الإشارة المتفق عليها، انقض سيكست على مارك كصخرةٍ انتُزِعَتْ من الجبل واندفعت بعنفٍ نحو جدْيٍ وسحقتْه. وكادَ يُمسكه بذراعيه القويتين اللتين بَدتا قادرتين على سحقه، لولا أنّ مارك انزلق تحته وانساب كالانقليس ليظهر من الجهة الأخرى برقةٍ ونعومة. كان يبدو أن سيكست سيقضي على مارك لكنّ هذا الأخير كان يتمكن من الافلات من بين يدي خصمه كلّما وقع بينهما.

أخيراً، قفز مارك قفزةً سريعة وغير متُوقّعة وراء سيكست- الذي أخذته المفاجأة- وقَلَبه على الأرض، ووضع ركبته على صدره. فهاج سيكست العملاق وأخذ يتخبط ويحاول الخلاص من خصمه ودفعه عنه. وربما كان سينجح في ذلك، غير أن الجمهور هتف صائحاً:

- لقد ربح مارك! مرحى!

فحمله رفاقه على أكتافهم بانتصار، وأخذوه إلى الأمير الذي هنّأه.

في ذاك الوقت، جرى الاستعداد للمسابقة الثانية التي سيتنافس فيها الفرسان. فبدأ هؤلاء بالسير ضمن رتَل طويل حازَ على إعجاب الحضور. ثم تفرقوا إلى مجموعتين، وأخذوا يحيّون ويحيّون الجمهور وكأنّهم سيبدؤون المباراة. حينئذ، نهض الأمير، وبحركةٍ سريعة، نزع معطفَه ثم أعاده. لقد كانت الإشارة المتّفق عليها.

عندئذٍ، انعطف الفرسان بسرعة وقفزوا نحو السياج وتخطّوه، و اندفعوا إلى وسط المتفرّجين الذين ذُهلوا ولم يفهموا فوراً ما الذي سيحصل. وبدأ الفرسان يأخذون الفتيات دون تمييز، ويقعدونهم على ظهور جيادهم، ويختفون بلمح البصر.

وهكذا تحوّل الحبور في لحظة، إلى حيرة وأسى، كانت الفتيات تتخبطن وتصرخن على ظهور الجياد التي أخذت تعدو مبتعدة. فيما الآباء والأمهات والأخوة الذين أخذتهم البغتة يحاولون اللحاق بالأسيرات، مصطحبين معهم الفتيات المتبقيات.

- واللواتي كنّ قد هربن- لحمايتهن من الخطر. لكنّ فرساناً آخرين ظهروا لهم وانتزعوا الفتيات منهم، وسحبوهن كما تُسحب الأحمال وهنّ يصرخن ويولولن، ورفعوهن فوق جيادهم وانطلقوا كالبرق. وارتفعت غمائم التراب نحو السماء، وامتزجت بأصوات النحيب والعويل والبكاء، وهتافات النصر والإثارة.

كان سباقاً جامحاً، ومعركةَ مجابهةٍ، أطيحت فيها النساء، وجُرَّتْ على الأرض، وتخلّلتها مطاردات عدّة، كان الصراع في كل مرة فيها يزداد حدّة وسعيراً.

لم يستطع خلال هذا اليوم الرهيب سوى عدد قليل من الآباء أن يعودوا ببناتهم إلى البيوت. أمّا الآخرون فلقد اضطروا إلى تركهم في رحمة الفرسان الرومان.

وأخذ الآباء، والأمهات، والأخوة، وخطباء الفتيات يصبّون لعناتهم على الرومان ويتوعّدون بالثأر الرهيب. عادوا إلى بلدانهم وهم يلعنون روما وينتحبون ويقسمون على الثأر.

وكان يوم العيد هذا، يوم حَدادٍ في كثير من الأُسَر السابينيّة والإتروريّة واللاتينيّة.

-١٦-

حكاية الفتيات المختَطَفات

مرّت ثلاثة أشهر. بكت فيها الفتيات المختَطَفات بكاءً مراً. ومزّقن ثيابهن وشدَدْنَ شعورهن خيبةً ويأساً. ثم استسلمن لذلك، فعليهنّ قبول قدَرهن أو الموت. وشيئاً فشيئاً، بدأن يهدأن ويقلّلن من سُخطهن: لقد انتبهن إلى أن روما جميلةٌ وكبيرةٌ. وخلال وقت قصير، تعلّقن بالشبّان الذين عاملوهنّ معاملة حسنة جداً. وكنَّ يومياً يعثرن على صديقة جديدة، أو رفيقة، أو قريبة لم يتوقعن رؤيتها يشعرن بفرحٍ يمازجه الألم، وتتدفق الدموع من أعينهن مع فيضٍ من الحنان. فيتكلمن فيما بينهن عن أهلهن وأصدقائهن البعيدين وقد ربطت بينهن صداقة أقوى مما كانت عليه في السابق وتأخذ كل واحدةٍ تشجع الأخرى.

هكذا تم اللقاء بين «ارسيليا» و«جولي» و«فولڤي» و«سيلڤي» و«كورنيلي».

سكنتْ «أرسيليا» التي تزوجت من الأمير رومولوس في أجمل بيت في روما، وكانت تتمتع بذكاءٍ ورجاحة عقل مكّناها من إقناع رفيقاتها بالتزام الهدوء، إذ لاجدوى من الاستمرار في الغضب، والأجدر، محاولة التأقلم مع هذه الحياة الجديدة.

كنَّ دائماً وأبداً، يقارنّ بين مصير بعضهن البعض. فها هي «كورنيلي» أصغرهن سناً، وابنة عم «أرسيليا» التي تحبها بعطف وحنان، تروي لهنّ قصتّها قائلة: - كنت أجلس قرب والدتي، أراقب باهتمام مباراة الفرسان، لابدّ أنكنّ

تتذكرن ذلك الفارس الأشقر الذي كان يوجّه رأس رمحه إلى صدر خصمه، وحصانه الذي كان يقف على قائمتيه الخلفيتين . . .

قالت «كليليا» و«جولي»:

- أجل، لقد كانت لحظة مؤثرة!

- بمقدوركن تصوّر مقدار انشغالي عمّا كان يدور حولي لدى رؤيتي للفرسان الذين وثبوا أمامي. لم أفهم شيئاً للوهلة الأولى. فمن الصعب تخيّل قيامهم بشيء مماثل لذلك.

قالت «كليليا»: - ولاسيّما بغتةً! وجدتُ نفسي حينها فجأة مقعيةً فوق حصانٍ قبل أن أدرك أنهم يريدون أخذي.

- وأنا أيضاً! فلقد تسلّقوا السياج بلمح البرق.

- ثم، أوَلمْ يأخذوننا أمام أعين الجميع بحجة إعطائنا أفضل الأماكن؟

- أذكر أن أحدهم حملني، وانطلق يعدو بي مسرعاً، حاولتُ الدفاع عن نفسي، جاهدتُ للإفلات منه والهرب! آه نعم! لقد كان أقوى مني مئة مرّة، أمّا الجواد فكان ينطلق كالريح. خلال لحظة، وصلنا أمام بيتٍ. توقّف الفارس وترجّل، وأعطى زمام الجواد لفارس آخر، ثم حملني إلى الداخل، تخبّطتُ كثيراً، وارتميت على الأرض أبكي يائسة، وأنا أتوسّل إليه كي يدَعني أرحل. قال الفارس: «أي شيء آخر سوى ذلك. . فأنا لا أستطيع فعلَ ذلك، بأمرٍ من أميري! . .». فبكيتُ وعاودني اليأس مجدداً.

ثم قبعتُ في زاوية على الأرض أبكي ليل نهار.

كانت تقدّم لي أشهى المآكل، لكنني لم أكن أرغب في تناول أي شيء.

قالت «كليليا» و«جولي»:

- كذلك أنا، كذلك أنا.

سألتْ فتاةٌ أخرى: «وماذا حصل بعد ذلك؟».

بعد ذلك. . لم يكن أمامي سوى أن أموت أو أن أستسلم. والواقع أن خاطفي لم يكن شريراً أبداً. فقد وعَدني بأشياء كثيرة، كأن يحبني، ولايجعل شيئاً ينقصني.

وقد أوفى بوعده. إنه طيبٌ ويرعى شؤوني كلها! لكنني أفكر دائماً في بلدي وأودُّ رؤية أهلي، بيد أنني أريد أن يكون زوجي بصحبتي، فلم أعد أرغب في العودة وحدي.

قالت جولي: - ولا أنا

وقالت كليليا: - ولا أنا

سألت أرسيليا: وأنتِ يا «فولڤي؟»

لقد كانت «فولڤي» أجملهن، فهي طويلة القوام، مُهابة، عيناها سوداوان، وجهها متورّد. وشعرها ذو لون أشقر ذهبي.

- أنا لم أُخطف مباشرة، فقد اختبأت مع أبي، وكنت أظن أنني في مأمنٍ، وإذا برجل يضعني على كتفيه ويجري بي نحو المدينة، إلى منزل «تالاسيوس»، حيث تركني هناك. «تالاسيوس» كما تعلمن هو الآن زوجي، كنت محظوظة بالرغم مما تعرضت له، إذ لم أكن لأتمنى أفضل منه زوجاً، أودُّ العودة إلى بيت أهلي، لكنْ معه. وأنتِ يا أرسيليا؟

- أنا، لقد أُخذْتُ إلى الأمير «رومولوس». ولم أكن الوحيدة، فقد كنّا حوالي العشرين تقريباً. لم أكن أعرف رفيقاتي، لكن شعرت أنه من واجبي حمايتهن. فقد كنَّ يبكين ويصحن ويشددن شعورهن.

شاهدتُ الأمير رومولوس يدخل، فتبيّنت فيه ذلك الرجل الذي سبق ورأيته في المنصة بين النبلاء. توجّهت نحوه وقلت له: «أيها الأمير، ها نحن بين يديك، إننا نساء، وسوف تفعل بنا ما تريد، لكنني أثق بك، ولا أظنّ أنك ستُعامِل بوحشية فتياتٍ بائسات يتوسلن إليك كي تحافظ عليهن».

فأجابني: «من أنتَ حتى تتكلمين بهذه الفصاحة؟».

قلتُ له من أنا، وماذا يدعى أبي. فأكّد لي أنّ أحداً لن يطالني أو يطال رفيقاتي بذرّةِ سوءٍ، وأنه بإمكاني الهدوء وطمأنة الفتيات الأخريات.

وهكذا، وجدتُ نفسي ببساطة على رأس مجموعة الفتيات اللواتي كلّفنني بالكلام مع الأمير كلّما استدعتْ الحاجة. وأخيراً، تزوجتُ الأمير رومولوس.

يجب الاعتراف بأن مصيرنا ليس سيئاً. فالرجال هنا ليسوا بأسوأ من أولئك الذين كان يمكن أن نتزوجهم في بلداننا. ولو أننا استطعنا أن نرى مجدداً آباءنا وإخوتنا وأخواتنا، لعشنا بسعادة في روما.

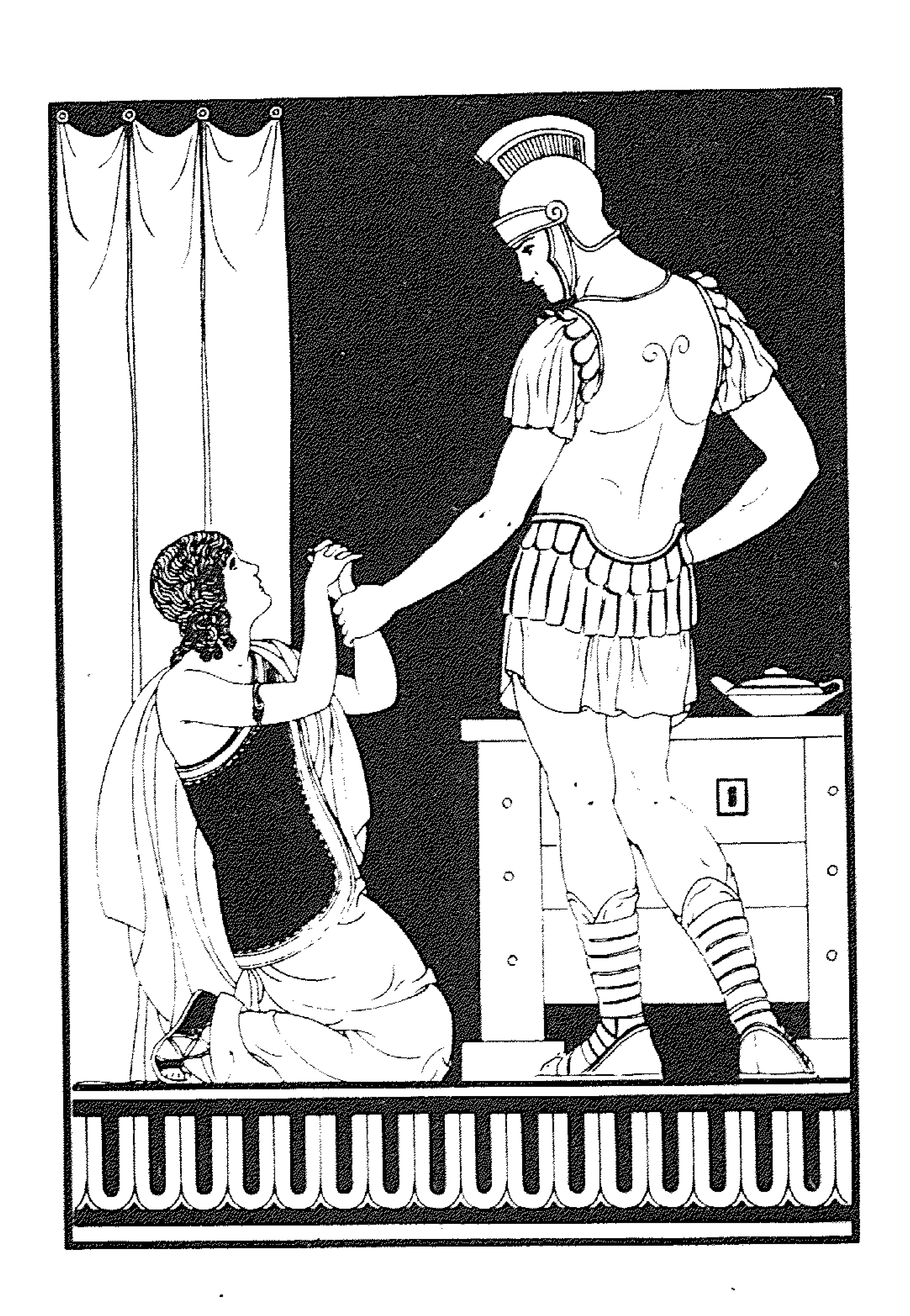
يوماً بعد يوم، أخذت الفتيات يستعدن بشاشتهن وهدوءهن، لكن السلام لم يعرف طريقه إلى آبائهن الذين كانوا يريدون استعادة بناتهم.

اجتمع الرجال في بلاد السابيّين للتشاور، فبدأ والد «أرسيليا» الكلام، كان رجلاً حكيماً، ذا نفوذ كبير، يحترمه وينصت إليه الجميع:

- أصدقائي، اجتمعنا اليوم كي نجد العلاج للخيانة الشائنة التي وقعنا ضحيتها. لقد سلَبنا الرومان بناتنا، منتهكين بذلك قوانين الضيافة فقد ذهبنا إليهم بكل ثقة...

قال له أحد الآباء:

- لم أكن أتخيل حدوث شيءٍ مماثلٍ. لَكَمْ كنّا ساذجين. لقد ألحّوا في السابق على طلب بناتنا للزواج، ولم يكن يجدر بنا أن نبعثهن إلى روما.



فقال آخر :

- الحرب على الرومان!

- نعم، قد تكون فكرة صائبة، لكن لاننسى أنّ بناتنا بين أيديهم، وأنّه بإمكانهم الانتقام منهن، وقتلهن. . . لايمكننا أن نفعل هذا!

قال عجوز له ثلاث فتيات صغيرات في روما :

- هذا صحيح! ينبغي أن نبحث عن وسائل وديّة. لنبعثَ برُسُلٍ إلى الأمير رومولوس ونرجوه أن يرسلَ بناتنا ، ونعده بإقامة عهود مصاهرة وصداقة، وزواج حسب الأصول.

- أجل، فلْنبعث الرسل.

وهذا ما حصل. فقد غادر ثلاثة رُسُلٍ من السابيين إلي روما، ومَثَلوا أمام الأمير رومولوس كي يطلبوا منه استعادة بناتهم :

- أيها الأمير، إننا نعرض عليك السلام والصداقة. أعِدْ بناتنا، ونعدك بالمصاهرة، والزواج منهن حسب الأصول.

قال الأمير : ـ كان بإمكاننا أن نبقَ أصدقاء لو أنكم تركتم لي بناتكم حينما طلبتهن منكم.

فات الأوان الآن. لقد فُزنا بهؤلاء النساء وأصبحن رومانيات الآن، لانستطيع العيش بدونهن. إننا نرحب بكم ساعة تشاؤون المجيء إلى روماً، أمّا النساء، فإنهن نساؤنا، ولن نرجعهن أبداً.

-١٧-

حرب روما الأولى

في ذلك الوقت، منذ أكثر من ألفي عام، حين سلَب الرومان نساء الشعوب الأخرى كي يتزوجوهن وتنجبن لهم الأطفال، عاشَ في ذلك الوقت، قرب روما شعب يدعى بالسينينيين.

كان السينينيون أقوياء، وكان ملكهم «أكرون» جسوراً جداً ومقداماً في الأمور المتعلقة بالحرب. رأى الملك شعبه عائداً من روما باكياً، وقد عادَ الرجال والنساء العجائز فقط، أما الفتيات- زهرة المدينة- فلم يكنّ معهم. سألهم قائلاً:

- أين تركتم الفتيات؟

- لقد خطفهن الرومان، أجل، لقد خطفوهن!

- يجب أن نستعيدهن! ساعدنا أيها الملك، فأنت العظيم والحكيم والشجاع! أنت حامينا، وأملنا، ساعدنْا!

أخذَ الآباء والأمهات يصيحون وينتحبون على بناتهم المخطوفات، وسُمِعَت من خلال أصوات بكائهم أصواتٌ أقوى لخطباء بناتهم يشتمون ويلعنون بأشرس اللعنات.

- أخبروني، أخبروني ما الذي حصل! سنعاقبهم، هؤلاء الخونة السافلين، سنعاقبهم، أعدكم بذلك. ستعودُ بناتكم إليكم، وإلا لن أكون ملككم!

لن أرتاحَ ويطمئنَ قلبي حتى يعدْنَ مجدداً بيننا .

فروى له «آشيليوس» و«ريجيوس» والآخرون ممن شهدوا عملية الاختطاف ما حدث فقال أحدهم أنهم يبلغون المائة فارس، وأكّد آخر أنهم يبلغون الألف، مدججين بالسلاح إلى أسنانهم، وبأنهم ذوي قوةٍ خارقة .

واتفق الجميع على أن يرسلوا فوراً سفراء إلى روما للمطالبة بالفتيات .

قال «ڤولومينيوس» :

– أمّا أنا، فلقد توخّيت الحذر كي لاتغادر ابنتي البيت في هذه الأيام الأخيرة . طبعاً، يجب أن أصرّح أنني لم أتصور حدوث شيء مماثل . لكنّ شعوراً غامضاً انتابني بوجود خدعةٍ ما وراء ذلك . لقد كنّا نعلم أنهم بلا نساء . . .

أقول لكم أننا نستطيع أن نرسل إليهم جميع السفراء الذين نريد، لكنهم لن يُعيدوا النساء !

ما يلزمنا هو فرقة حربية قوية ! ولنضربهم فوراً أو فلْنتخلى عن نسائنا ونقبل أن يكنّ مواطنات رومانيات .

– آه، لن يكون هذا، إنهم يريدون الحرب، فلنعلن الحرب ! ونُبيدهم جميعاً !

وهكذا، جمع الملك آركون فرقَ جيشه ليزحف بها إلى روما . وما أن علم الأمير رومولوس بهذا، حتى قام باستدعاء فرسانه وقادته وجنوده المشاة وجميع من يقع تحت إمرته .

وقال لهم :

– أيها الرومان، سوف نثبت قوتّنا للمرة الأولى، فإذا انتصرنا فإن روما ستنجو وسيكون لها غداً مشرقاً ومجيداً، أمّا إذا هُزمنا فسيكون يومها الأخير

وهلاكنا إلى الأبد، لكننا لابد منتصرين! إن مصير روما اليوم بين أيديكم! فلْيقمْ كل واحد بواجبه ولْيقاتلْ حتى النهاية، فليحيا الوطن، فلتحيا روما!

فصاح الجنود:

- سنقاتل حتى النهاية، لأجلكَ ولأجلِ روما!

وسرعان ما التقى الجيشان الروماني والسينياني وجهاً لوجه بزعامة قائديهما.

ابتدأ الملك آركون الكلام أولاً:

- أيها الأمير رومولوس، أنا آركون، ملك السينيين. إن شعبي عريق وقديم قدمَ العالم، لم يهزمه أحد قطّ. إنّنا نريد الثأر لنسائنا. غداً، لن يتذكر أحد روما، لكن اسم السينيين وملكهم سيبقى على مرّ العصور!

بعد أن انتهى آركون، ملك السينيين من كلامه أجابه الأمير رومولوس:

- أيها الملك، إن شعبك عريق، لكنه غداً سيتلاشى. مايزال شعبي فتياً، لكنّ مستقبلاً كبيراً بانتظاره. أمّا أنا رومولوس المتحدّر من «اينيه» بن «ڤينوس» الذي جاء منذ أزمنة سحيقة من بلاد بعيدة وتوجه إلى هذه الشواطىء الايطالية، فسأدافع عن روما!

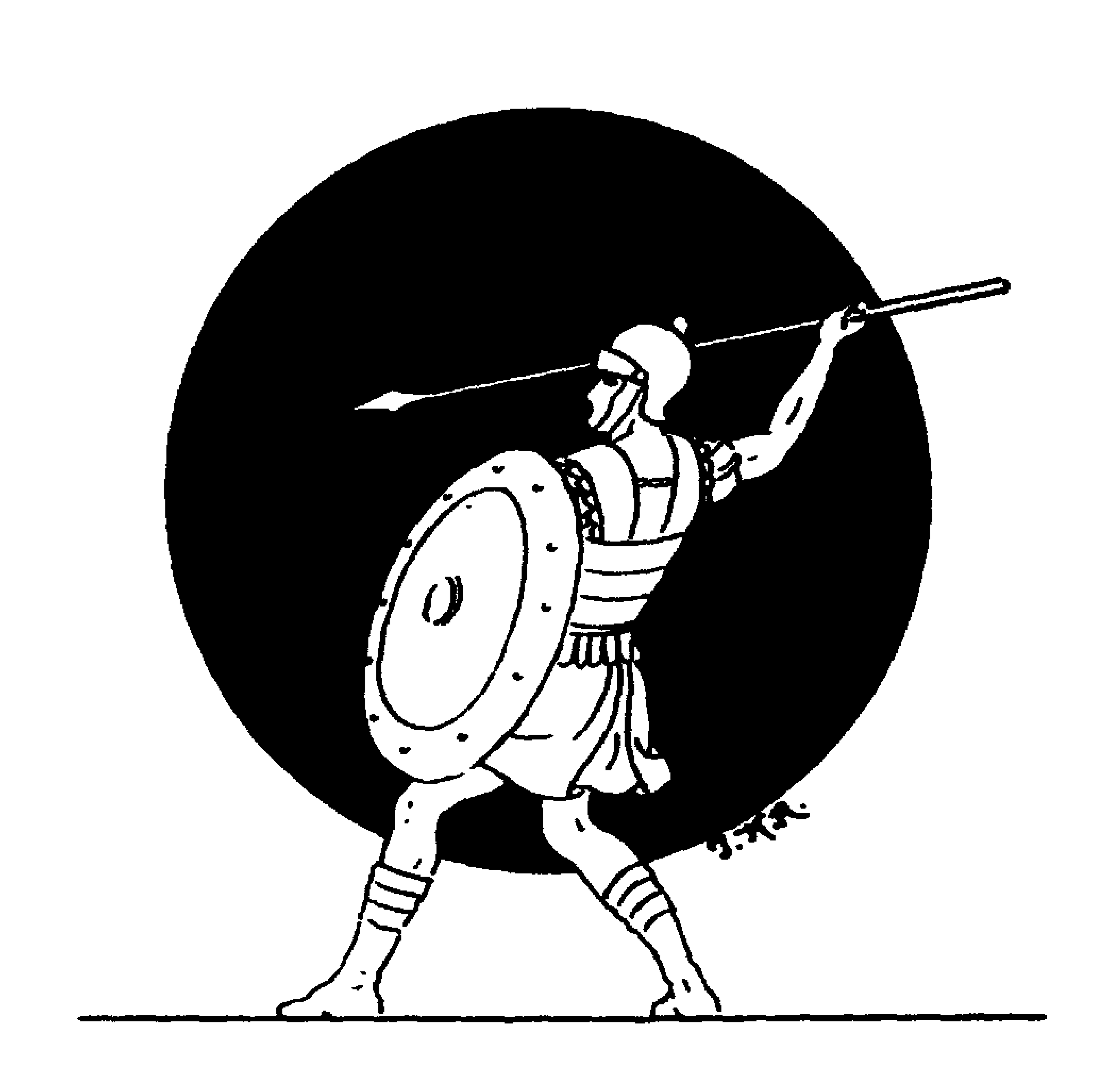
بعد أن انهى الأمير رومولوس كلامه وقبل أن يندفع للمعركة توجّه بصلاته إلى الآلهة:

- أيها الإله جوبيتر العظيم، يا أبا الناس والآلهة. استمعْ إلى صلاتي. إن حياة روما تعتمد على نتيجة هذه المعركة. فاحمها في هذا اليوم. أعِدكَ إذا ما هزمتُ الملك اركون أن تكون أسلحته لكَ، وأن تُنْذَرَ لكَ أيها الإله جوبيتر في معبدٍ سيحمل اسمكَ في العصور القادمة.

واندفع الأمير رومولوس بكل قوته في المعركة ضد آركون الملك القوي الذي يهابه الجميع، ورمى الأميرُ الملكَ بسهمه فأرداه قتيلاً. ثم جرّده من أسلحته وقال للجنود:

- ادخلوا مدينة السينينين واحرقوا المنازل جميعها، عدا تلك التي تخصُّ أهالي الفتيات اللواتي اختطفناهن. وأبقوا على حياة السكان وعاملوهم بالحسنى واصطحبوهم إلى روما كي يصبحوا مواطنين رومان.

كان ذلك ما قاله الأمير رومولوس بينما كان يقود جنوده إلى أرض السينينين إثر انتصاره الأول.



-١٨-
حكاية الأمير المنتصر

بعد موت الملك آركون، دخل الفرسان والمشاة الرومان مدينة السينيين فوجدوهم يبكون وينتحبون.

- لقد دُمِّرنا، لقد ضعنا، إنها النهاية!

- وا أسفاه! سنصبح عبيداً للرومان!

- عبيداً؟ لا، لن تصبحوا عبيداً أبداً! تجتمعون ببناتكم وأخواتكم في روما حيث سيحتفلن بكم وستسعدون معهن، وسوف تكونون مواطنين أحراراً، مساوين لنا، يحترمكم الجميع، وستكونون حقاً مواطنين رومانيين إنّ روما بحاجة إلى عائلات حرّة، ولا تريد عبيداً! سيكون بامكانكم ممارسة مهنكم ومتابعة أعمالكم. أولَستم آباء واخوة نسائنا؟ أولَستم آباءنا؟ حالما تصبحون في روما، وتعيشون تحت قوانيننا، ستدركون معنى أن يحميكم أمير حكيم وقوي كالأمير رومولوس!

بعد أن أنهى الجنود الرومان كلامهم، قاموا بحرق المنازل حسب الأوامر التي كانوا قد تلقونها، تاركين الأهالي السينيين دون مأوى. وأبقوا فقط على منازل أهالي الفتيات المخطوفات، إلا أن هؤلاء الأهالي لم يريدوا البقاء في مدينتهم:

ما الذي سنفعله هنا وحدنا وسط هذه الكآبة؟ لنذهب هناك حيث توجد بناتنا، فلا شيء هنا سوى البؤس والخراب والأسى!

هكذا، هاجر السكان السينينيين ضمن مجموعة كبيرة إلى روما، واجتمع الجنود الرومان، بالاتفاق مع عائلات السينيين في معسكر واسع، يتقدّمهم الأمير رومولوس الذي كان يقودهم بنفسه على صهوة جواده إلى روما، إذ كان يريد أن يكون دخول الجنود والأهالي إلى المدينة دخولاً منظّماً.

وكان مشهداً عظيماً.

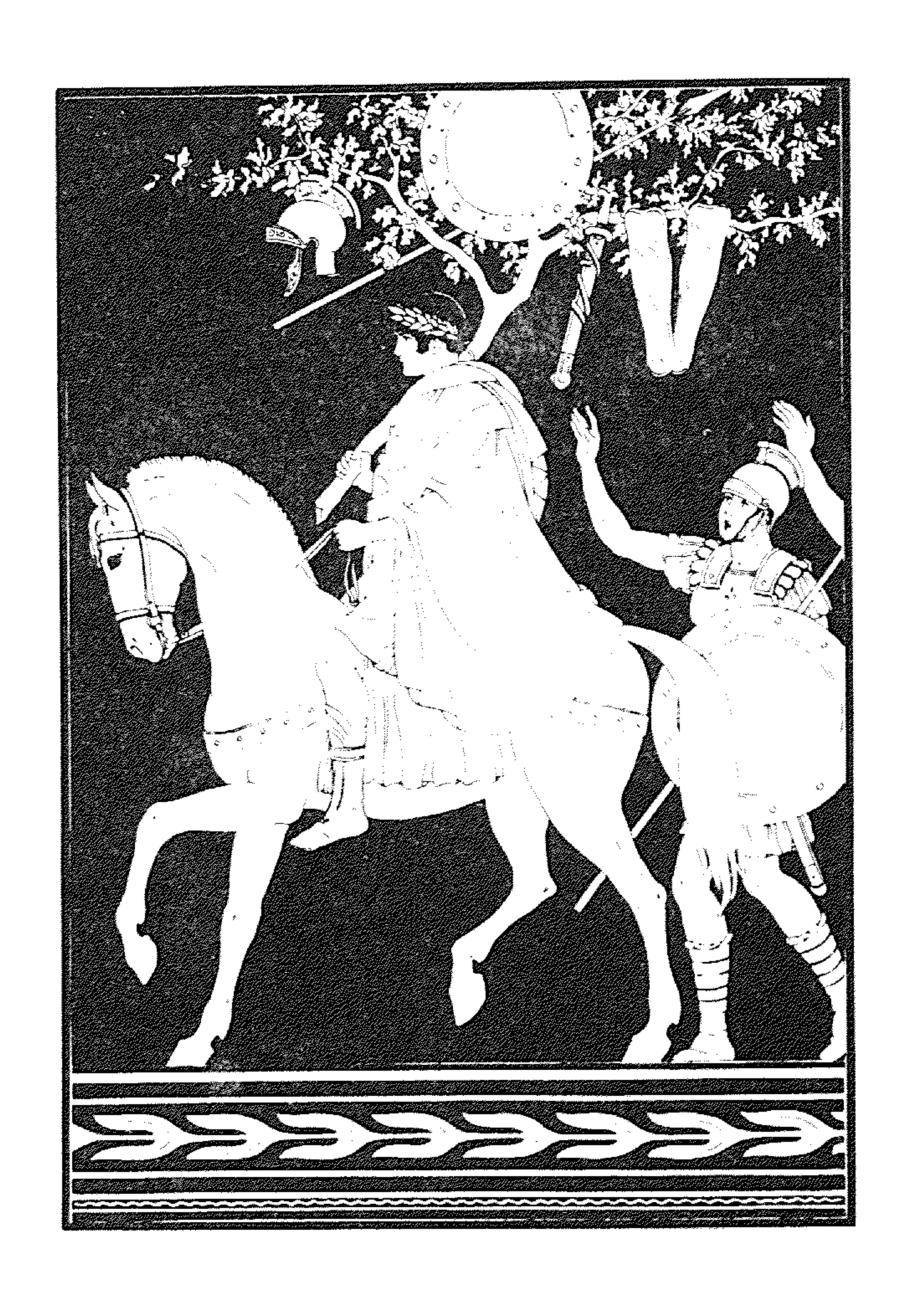
فخرج الأهالي جميعهم من عجائز، ونساء، ورجال معاقين ووقفوا أمام أبواب بيوتهم ليرحّبوا بالمنتصرين، ويَروا السينيين. أمّا النساء السينييات اللواتي أصبحن روميّات فكنّ قلقات ومضطربات.

وصل الفرسان في مقدمة الجيش، وكان الأمير رومولوس في مقدّمتهم جميعاً، على جواده الكبير المزيّن بالغار، الذي كان يضع عليه جذعاً كبيراً من شجر السنديان، وقد علّق في غصنها أسلحة الملك «آركون» الرائعة. دخل الأمير رومولوس مدينته دخول المنتصر، الواثق من نفسه، الذي يحمي من يلجأ إليه، ولا يرحم من يثور عليه، وكان الرومان ينظرون إليه بإعجاب وهو يمرّ أمامهم، فيهتفون ويهللون له:

- مرحى! المجد! المجد للمنتصرين، المجد للمنتصرين!

تلا الأميرَ رومولوس الفرسانُ وتبعهم المشاة. وفي وسط هؤلاء كان أهالي السينيين يسيرون مطأطئي الرأس: لقد كانوا عائلات بأكملها، ورجالاً مكدّرين، ونساءً تبكي وتُمسك بأيديها أطفالاً يبكون أيضاً.

لكن الآباء، والأمهات، والأشقاء، وجدوا بعض العزاء عندما اجتمعوا ببناتهم وأخواتهم، وخف حزنهم، وعادت البسمة تضيء وجوههم الباكية.



ظلّ الأمير رومولوس يسير وينشد نشيد النصر، والجنود ينشدون معه وسط ابتهاج شعب روما.

- جوبيتر، لقد حميتنا، لقد انتصرنا، وأنقذتْ روما. والشكر لك يا جوبيتر يا أبانا!

ويردد الجنود معاً:

- الشكر لك!

عندما وصل الأمير رومولوس إلى قمة تلّة «الكابيتول» وضع جذعَ شجرة السنديان الضخم أمام شجرةٍ مُعمّرة، وخَطّ بمساعدة الكهنة خطوط الحَرَم المربّع.

وساد الصمت. ثم تكلم الأمير رومولوس بصوت واضح وجهوري يسمعه الجميع:

- جوبيتر، ياإله الغانمين، أنتَ يا من حمى روما في محنتها الأولى، اقبلْ هذه الأسلحة الملكية التي أهديها لك اليوم ثمناً لانتصاري. هنا، وعلى هذه الأرض المقدسة وقرب هذه الشجرة المقدسة سيرتفع نصب معبدٍ يُكرّس لك يا إله المنتصرين. هنا، حيث وُضعت اليوم أحجار الأساس في الحُفَر التي شُقّت لإقامة جدران المعبد. وسيضمّ المعبد غنائم الملوك الذين هزمهم الرومان كما فعل بهم اليوم ابنكَ رومولوس: وأنت يا جوبيتر، يا إله الغانمين وإله الانتصارات، احمِ روما والرومان واجعلهم عظماء وأقوياء، قادرين على احترام القوانين التي منحها لهم ابنكَ رومولوس من أجل خير روما والرومان.

وكان الأهالي، والجيش كلّه- يهتفون بقوة ويرددون الدعاء لجوبيتر في يوم الانتصار ذلك، الذي كان الانتصار الأول لروما.

-١٩-
حكاية النساء اللاتي كنّ يردنَ السلام

في تلك الليلة، لم يلحظ أحد شيئاً غريباً في روما، لكنْ عندما حلّ الفجر وبدأت السماء بالانقشاع، أُطلِقَ جرس الانذار وأدرك الجميع أن مصيبة كبيرة تهدد المدينة.

ما الذي كان يجري في حصن تلّة الكابيتول؟ لقد ظهر الجنود في كل مكان لقد تعرّضت روما للخيانة!

وقُتِل جميع جنود الحامية، واستولى «السابان» على التلّة المشرفة على روما.

خيانة! لعنة! لقد أصبح المكان الأقوى في المدينة بأيدي العدو!

ترى من ترك السابان يدخلون إلى الحصن؟

إثر ذلك، خرج الرومان من بيوتهم يملأهم الغضب وقد حملوا أسلحتهم ثم تجمعوا وباشروا بالزحف تحت إمرة قادتهم للهجوم على التلة لطرد السابان الذين احتلوا الحصن. لكن السابان دحروهم بضراوة من حصنهم العالي.

أمام الباب العتيق لجبل البالاتان رفع الأمير رومولوس يديه إلى السماء يدعو الآلهة بشغف وكأنه لم يرَ فرار شعبه ولم يشعر بخوف الجنود الذين يلاحقهم العدو، فكان يصلي بصوت عالٍ ويقول:

- جوبيتر، بأمركَ أقمتُ هنا مدينة روما، وبإرادتك دافعتُ عنها اليوم.

لكنّ الأعداء أصبحوا الآن سادة تلّة الكابيتول وهم في طريقهم نحو البالاتان.

هنالك خائن سلّمهم الحصن- اللعنة عليه اليوم وإلى الأبد. جوبيتر العظيم، لقد أمَرَتْ آلهةُ السماء بعدم هروب أي شخص، كما أمَرَتْ بأن يجتمع الجميع هنا حولي فقد تنبأتْ لي بالنصر!

توقف بعض الجنود قرب رومولوس يستمعون إلى كلامه وهو يقول:

لقد أعلنتْ الآلهة أن روما ستُنقذُ اليوم. لقد استُجيبتْ صلاتي وستنجو روما بفضلكِ يا آلهة السماء، وبفضلك ياجوبيتر! وسوف أقوم هنا في هذا المكان الذي أوقفت فيه الرومان وحيث قررتَ يا جوبيتر العظيم أن تنقذَ روما، سوف أقوم ببناء معبدٍ أجعله تذكاراً لهذه الساعة. وسأكرسه لك يا جوبيتر يا مَنْ أوقفتَ الرومان عن هربهم. والآن، إلى الأمام أيها الجنود! فلْنُطعْ إرادة الآلهة، ولننقذ روما!

وتجمّع الرجال حول أميرهم، كذلك تجمّع أولئك الذين كانوا يحاولون الفرار وعادوا من جديد مستعدين للقتال. وهكذا قلَبَ رومولوس حركة جنوده الذين ذهبوا مجدداً للهجوم على التلّة.

من جهتهم، كان السابان على يقين من أنهم سيفوزون.

صاح «مينتوس» أحد قادة السابان بجنوده وبالرومان الفارّين:

- إلى الأمام أيها السابان، لقد فزنا، لقد انتصرنا!

لكنّ الرمان وبوثبة رهيبة انقضّوا عليه وقد اجتاحهم الحنق فتوقف ميتيوس عن الهتاف بالنصر وقد اخترقه مائة سهم.

في ذلك الوقت، كانت النساء في روما تشعرن بالقلق في بيوتهن.

ايرسيليا! كورنيلي! ماذا حصل؟

- إنهم يقتتلون، هل ذبحوا بعضهم؟ لقد اشتبك رجالنا وآباؤنا، واخوتنا وأزواجنا مع بعضهم البعض في الشوارع!

- لنخرج! ولْنذهب بينهم مع أولادنا ولنَرَ إذا كانوا يستطيعون قتل الأطفال، وقتل أحفادهم!

غادرت النساء جميعهن منازلهن. وخرجت ارسيليا، وفولڤي، وكورنيلي، وكليليا، وجميع النساء السابانيات اللواتي أصبحن رومانيات، خرجن إلى الشوارع يحملن أولادهن بين أذرعتهن. آنذاك، تعرّف كلّ جندي روماني على زوجته، وتعرّف كل جندي ساباني على ابنته أو أخته.

ما الذي تريده هذه النسوة وسط المعارك الدائرة، وكيف يخاطرن بحياتهن مع أطفالهن؟ هل فقدن عقولهن؟

لكن «ايرسيليا» وكانت أحكمهن، وقفت وسط المتحاربين وقالت للجنود:

- لمَ نسيء إلى بعضنا؟ لقد أُخذنا من عائلاتنا عنوةً، وبكينا وذرفنا الدموع. ثم أصبح مختطفوننا أزواجاً لنا وآباءً لأطفالنا. هل تريدون الآن إبعادنا عن أزواجنا وأطفالنا كي نصبح أكثر بؤساً وتعاسة ويأساً من أيّ وقت مضى؟

يا آباءنا ويا أخوتنا! لاتفعلوا ذلك إنْ كنتم تريدون الخير لنا! تصالحوا مع بعضكم! فنحن نحب آباءنا كما نحب كذلك آباء أبنائنا!

هكذا تكلمت ايرسيليا أعقلهن، بينما اندفعت بعض زميلاتها الأخريات يعانقن آباءهن، وأخوتهن، وأزواجهن من رومان وسابانيين، وقامت الأخريات بحمل الجرحى وتضميد جراحهم ومواساتهم.

وهكذا، لم يعد أحد يتكلم عن القتال، وعمَّ السلام، وأصبح الشعبان شعباً واحداً، والمدينتان مدينة واحدة. وكل ذلك بفضل حب النساء لأنهن أردن الأمر هكذا.

وبهذا عمَّ السلام بين الرومان والسابان.

-٢٠-

زواج بليستينيوس

أصبح سرڤيوس العبد السابق رجلاً مهماً في روما، وقُبِل به بين النبلاء، حتى أن الأمير رومولوس كان يستشيره في معظم الأحيان. لقد كان ما يدعى في يومنا هذا مهندساً، و في تلك الفترة التي كانت فيها الإنشاءات على قدمٍ وساق، كانت أعمال كثيرة تنتظر المهندس أن يقوم بها.

كان بيت سرفيوس جميلاً وكبيراً، مع عدد كبير من الخدم، والكثير من الزبائن الذين كانوا على ثقة من أنهم سيلقون عنده العون الكبير.

لكن مأساة كبيرة حدثت في حياته منَعتْه من أن يكون سعيداً حقاً، فقد مات ابنه الصغير «ليسينيوس» خلال بضعة أيام قبل أن يتمّ الخامسة من عمره بيوم واحد، وكان ذلك أمراً قاسياً على والديه. وظلّت ذكراه تحلّق في أرجاء البيت. وكذلك فإن عدم وجود أطفال سواه تستمرّ بهم العائلة كان يجعل سرڤيوس واجماً وجافلاً.

أمّا «سيرا» فقد اختفت ابتسامتها، ولم تعد تغني أثناء عملها من الصباح حتى المساء وهي تراقب العبيد وتدير شؤون المنزل. لقد كانت تفكر بابنها الصغير» ليسينيوس» الذي ذهب دون عودة إلى بلاد باردة ومجهولة في غياهب الأرض، ولن تستطع رؤيته، بل جُلَّ ما كانت تستطيعه هو الصلاة، وسكب الخمر والعسل على قبره كي تغذّيه وتؤمّن له الراحة في عالم الأموات. ارتمت على الأرض تبكي، وتصلّي، ثم عادت إلى المنزل أشدّ حزناً، ولكنْ أكثر هدوءاً.

جاء بليستينيوس إلى روما ليسكن في بيت أخيه سرڤيوس الذي كان في أمسّ الحاجة إليه كي يستطع البقاء في الريف، وقبل قدومه، عيّن بدلاً عنه رجلاً ذا خبرة، شديد الاخلاص، متقدّم في السن، كان فيما مضى يعاني من عبودية قاسية، وأصبح الآن يقوم بمراقبة الفلاحين والرعاة.

في روما، انخرط بليستينيوس في صفوف الفرسان، وحارب ببسالة ضد السابان وعند انتهاء الحرب، عاد إلى البيت الحزين حيث كل شيء فيه يُذكّر بالصغير ليسينيوس.

ذات يوم قال سرڤيوس لأخيه:

- بليستينيوس يا أخي، صار ضرورياً أن تختار لك زوجة، ويصبح لك أطفالاً، كما ترى، فأنا و«سيرا» لم يعد لدينا أولاد أبداً، كل البيوت الأخرى في روما تضجُّ بالحياة، بينما بيتنا خالٍ ومقفر. لمنْ ستؤول أملاكنا بعد موتنا؟ ومَنْ سيحافظ على الشعلة متّقدة في موقد بيتنا؟ وسيقدّم الطعام الجنائزي لإله البيت «لار» كي نرقدَ بسلام في مملكة الظلال؟ لن تجد صعوبة الآن في العثور على فتاة لك وقد جاءت الكثير من النساء إلى روما. ستكون زوجتك إذا ما كانت طيّبة بَرَكة بيتنا. وسيكون ابنك بمثابة ابن لنا يقوم بعد موتنا باحترام وخدمة آلهتنا.

أجاب بليستينيوس:

- الحق معك، إنّ «فلامينيا» ابنة «فلامينيوس» تاجر الحبوب تروق لي.

- أهي تلك الفتاة التي فقدت أمّها، ولديها الكثير من الأخوة والأخوات؟

- نعم إنها هي بالتأكيد.

- أقسمُ بجوبيتر، إنها تعجبني أيضاً! إنها فتاة جميلة وطيبة. وهي نشيطة ومرحة، ودائمة الغناء كما كانت «سيرا» في السابق! سيكون وجودها بيننا مصدر

فرح وسعادة. إنّ «سيرا» تحبها أيضاً، وتقول حين تراها بين اخوتها وأخواتها: «هذه الفتاة ستجلب السعادة لمن يتزوجها». لكنني لم أتخيل أنك تريد أن تتزوجها!

- سرڤيوس يا أخي، أتودُّ أن تكلّم أباها عني؟

- بكل سرور. لقد كنت دائماً أرعاك في غياب والدنا، من يدري أهو ميت أم حيّ؟

عبدٌ أم رجلٌ حرّ؟ أو لديه سيدٌ سيء يذيقه العذاب ويجلده حتى يسيل دمه؟

وأخذ سرڤيوس يتذكر تلك الليلة البعيدة، البعيدة، والرهيبة، حيث كان يحمل على كتفيه المنهكين والمرهقين طفلاً تغطيه الجراح، يشارف على الموت، في محاولة لمنعه من الموت تحت وطأة سياط سيّد متوحش. تذكّر كيف ظلّ طوال الليل يمشي ويركض في طريقه إلى ملاذِ روما، وقلبه يعتصر لأنه كان واثقاً من الموت إذا ما تمّ القبض عليهما. أمّا الآن، فقد غدا هذا الطفل رجلاً، رجلاً قوياً وحراً، وأصبح مواطناً رومانياً.

قال سرڤيوس:

- سوف أذهب اليوم إلى تاجر الحبوب كي أطلب منه يد «فلامينيا» للزواج.

كان عدد أخوة وأخوات فلامينيا يبلغ التسعة، لذا كانت دائمة الانشغال بهم وبشؤونهم. وكان والدها رجلاً حراً، لكنه قتل في صباه رفيقاً له في مشاجرة بينما كانا شبه ثملين. فهرب إلى روما يبحث فيها عن ملاذٍ له، ثم تبعته زوجته التي أحبته، وما لبثت أن ماتت تاركة له عشرة أطفال. فأخذت «فلامينيا» ابنتهما البكر مكان أمّها، وانشغلت بإخوتها وأخواتها الصغار، واهتمت بهم وكأنهم أطفالها.

نفّذ سيرڤيوس ما قاله، وذهب إلى فلامينيوس وطلب ابنته للزواج من أخيه.

فأجابه الأب:

- يا لارتباكي وحيرتي، ماذا أفعل مع هؤلاء الأطفال كلّهم؟ ثم إن فلامينيا ما تزال صغيرة!

- مؤكد أنها فتية، وكذلك هو بليستينيوس. إنه عاملٌ واسع الثراء، فكل ما لديّ هو ملكٌ له، هذا علاوة عمّا يملكه هو. ستقيم فلامينيا عندنا، وبما أن بيتكم يجاور بيتنا سيكون باستطاعتها أن ترعى اخوتها وأخواتها بشكل دائم. لكن ماذا سيحصل لهم لو تزوّجْت بعيداً عن بيتها؟...

- معك حق، فعلاً، إن الفتيات لسن ملكنا، إذ ليس بمقدورنا أن نحتفظ بهن في البيت. وبليستينيوس شاب يُفْتَخر به.

وهكذا حُدِّد موعد الزواج.

ذهب بليستينيوس إلى منزل تاجر الحبوب يسعى إلى زوجته، فوجدها قرب الموقد المضاء، والمزيّن بالأكاليل، تتوسط اخوتها وأخواتها وأهلها. وقد جلس والدها إلى جانبها.

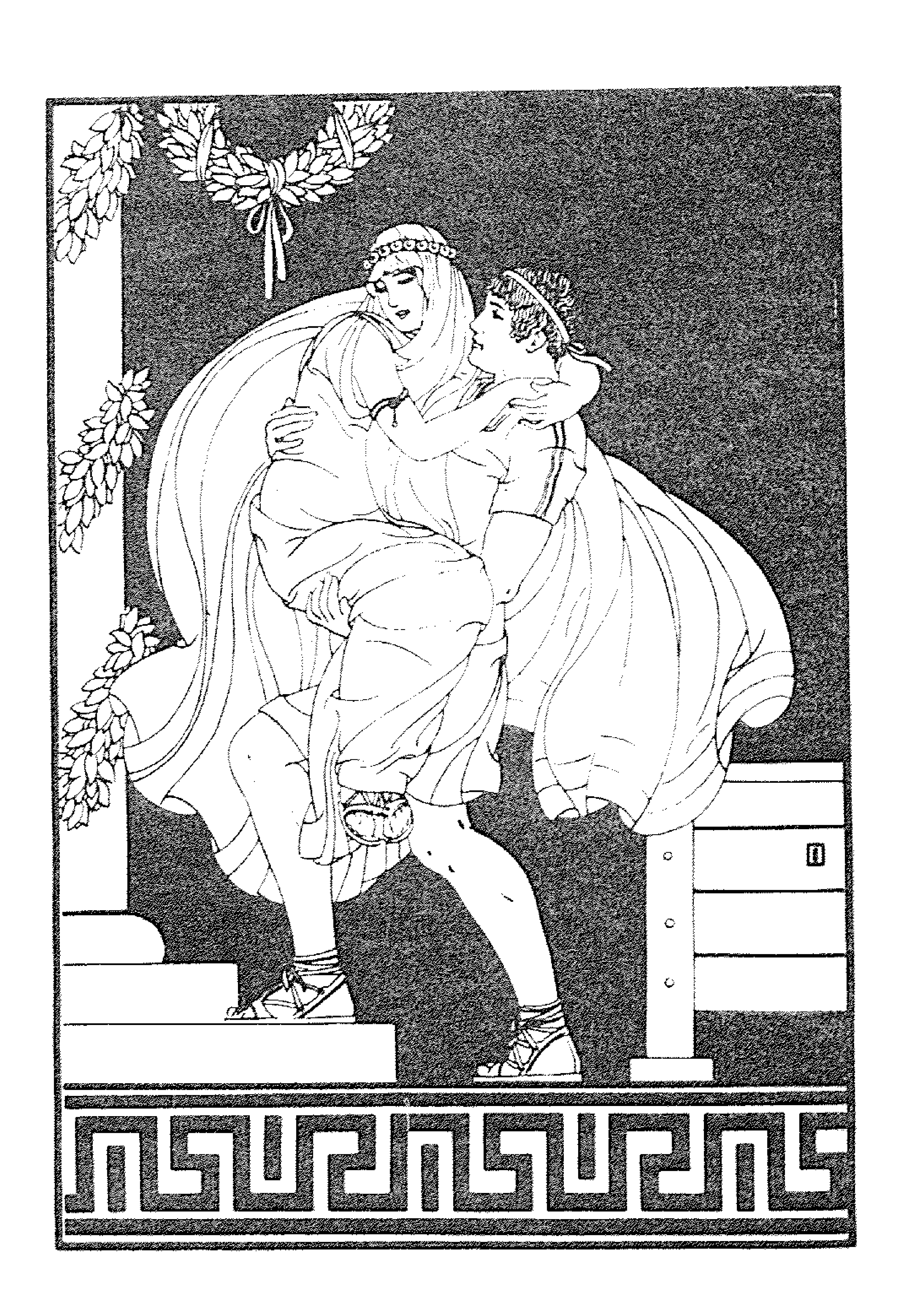
نظرت فلامينيا إلى بليستينيوس ببعض الخوف وقد تجرأت أن ترفع بصرها قليلاً. لكن صاحب البيت ذهب لملاقاة الفتى، واستقبله بحرارة. فيما قام الأهل بتهنأتهما.

ثم ألقت فلامينيا القمح والزيت والبخور في النار. فارتفع اللهب عالياً معطّراً وانتشرت رائحة البخور العطرية في أرجاء الغرفة. فسُرَّ الأهل وقالوا:

- لقد أقرّت آلهة الموقدِ الزواج!

- إنها سعيدة!

- لقد قبلتْ القربان!



- إنها ترسل أمواجاً من العطر!

- سيكون زواجاً سعيداً!

ثم قال فلامينيوس الواقف قرب النار إلى ابنته:

- فلامينيا، كنت دائماً نعمَ الفتاة الطيبة والحنونة، كم يحزنني أن أراك تغادرين بيت أبيكِ. لكنّ زوجك جاء يسعى إليكِ. منذ اليوم سيصبح لك بيتاً آخر، وعائلة أخرى. وستحافظين على نار جديدة وآلهة جديدة هي آلهة بيت زوجك التي سترعاكِ وتحميك. فلن تعود لك علاقة بآلهتك القديمة ولن تجلبي لها المزيد من الأكاليل كي تسعدَ حول الموقد القديم. أنتِ اليوم طليقة وحرّة، وبوسعك الآن أن تغادري بيتك كي تدخلي إلى بيت زوجكِ.

شعرت فلامينيا ببعض الضيق. أجل، إنّ بليستينيوس وسيم وطيب بكل تأكيد، فقد سبق لها أن رأته وكلّمته مراتٍ عدة في الشارع.

لكن لماذا يريدها؟ لماذا يصحبها بعيداً عن بيتها؟ ألم يكن مكانها هنا، بين هؤلاء الأطفال المحرومين من أمِّهم، وهم بأشدّ الحاجة إليها؟

لكنْ، كان عليها أن تطيع أباها. فكل الفتيات يُطعن آباءهن. وبدون أية مقاومة أو اعتراض وضعتْ الخمار على شعرها والإكليل في ذراعها، وذهبت إلى بيت سرڤيوس يتقدمها رجل يحمل شعلة الزواج، ويتبعها موكب طويل. وتوقفت عند مدخل البيت حيث سرڤيوس وسيرا يقفان على عتبته، فأقبلا مسرورين لملاقاتها وقدّما لها الماء والنار: النار، رمز الموقد الجديد للعائلة الجديدة، والآلهة الجديدة، والماء الذي يغسل ويطهّر.

وبما أنه على فلامينيا أن لا تطأ قدماها عتبة البيت وهي تدخل للمرة الأولى دار عائلتها الجديدة. فقد حملها زوجها بليستينوس بين ذراعيه واجتازا معاً عتبة البيت إلى داخله حيث الموقد الجديد.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت فلامينيا تنتمي إلى عائلتها الجديدة. ولم يعد بمقدورها أن تجلب الأكاليل، أو تسكب الزيت، والقمح، والبخور في موقد أبيها. لقد أصبح منزل زوجها منزلها، كما صار خدمه خدمها.

صبَّ سرفيوس الزيت بكثرة فوق الموقد فارتفعت الشعلة وكأنها تحيّي الزوجة الجديدة. ثم صبَّ دهن الخروف والخنزير، والقمح الجاف. فأتمّ بهذا القربان بأكمله كما تقتضي العادة.

بعد ذلك، قام بليستينيوس وفلامينيا بتلاوة الصلوات الشعائرية ثم تناولا حلوى الزواج المحضّرة من أجود أنواع الطحين. وفَعَلَ الحضور جميعهم مثلهما، وتمنّوا للعروسين دوام الصحة والحياة السعيدة.

تعلّقت فلامينيا بمنزلها الجديد. فكانت تُعدُّ الأكاليل للموقد الجديد، وتساعد «سيرا» في كافة الأعمال المنزلية، وتحبها وكأنها أختها. أما بالنسبة لإخوتها وأخواتها الصغار، فقد كانوا يجيئون ويذهبون إليها، إذْ لم يمكنهم الاستغناء عنها، ولا هي استطاعت أن تفعل ذلك.

-٢١-

حكاية جريمة وثأر

مضت خمس سنوات .

وأنجبت فلامينيا أربعة أطفال في منزل سرفيوس وسيرا . وصَعُبَ الأمر عليها مع إخوتها وأخواتها الصغار ، وأطفالها الأربعة الرُّضَّع ، فلم تكن تعلم إلى من تلتفت ، لحسن الحظ ، كان هناك سيرا التي وإنْ لم تنسَ ابنها الميّت ، إلا أنها كانت سعيدة وسط هذه الحياة الجديدة .

وظلّتْ روما خلال عدة سنوات تنعم بالهدوء والسلام .

كم كبُرَتْ المدينة ! وبدت مختلفة . فإنّ كون «تاتيوس» ملك السابان قد سكن روما ، شجع الكثير من السابانيين أن يستقروا أيضاً فيها ، ويبنوا بيوتاً جديدة ويتسلموا وظائف هامة . فتضاعف عدد النبلاء وبلغ المائتين .

قسّم الأمير رومولوس السكان ثلاثة أقسام ، وأعطى لكل قسم اسم قبيلة ، ثم عيّن لكل قبيلة زعيماً أطلق عليه اسم رئيس القبيلة . ثم سنّ لشعبه قوانيناً يوافق الكهنة عليها قبل تطبيقها . فقد بدا له أنّه جَمَعَ أناساً دون قانونٍ ، وسرعان ماتبيّن له أنه لايستطيع أن يحكم شعباً دون قانون أو دينٍ .

ومن بين الاجراءات الأخرى التي اتخذها ، تلك التي تُجبر المرأة على العيش مع زوجهاوعدم تركه لأي سبب من الأسباب .

مرّت خمس سنوات إذن. حكم فيها رومولوس مع تاتيوس ملك السابان بسلام، فكانا يتّخذان القرارات سوية وبالإجماع. لكن في السنة الخامسة طرأ شيء رهيب.

في أحد الأيام، غادر عدة سفراء مدينة «لورانت» للذهاب إلى روما والتحدث مع الملك تاتيوس والأمير رومولوس. كانوا شخصيات هامة وثرية، ويرتدون أفخم الثياب، وفي الطريق، التقوا بعض الرجال فاستفسروا منهم عن الدرب الصحيح، لكن الرجال نظروا بطمعٍ إلى زينة رجال «لورانت» الغنية، والحسد يشتعل في نفوسهم.

وطالبوهم بدفع جزية لقاء مرورهم، إلاّ أنّ السفراء رفضوا أن يدفعوا. فانقضّ عليهم الرجال القادمون من روما، وقتلوهم وجرّدوهم من كلّ ما يملكون.

عندما لم يعد السفراء، علِمَ آباؤهم وأصدقاؤهم بما حصل. فطالبوا بتحقيق العدالة:

- لقد قُتل آباؤنا، وأصدقاؤنا بوحشية، وسُلبوا بالقوة على قارعة الطريق، ومن العدل، كما يقول القانون، أن يُسلَّم المذنبون لنا!

قال رومولوس:

- سوف نسلّمكم المذنبين. يجب أن يأخذ العدل مجراه، وأن ينال المجرمون عقابهم. لكن تاتيوس رفض ذلك، فالمعتدين كانوا من أصدقائه وأهله. ولم يسبق لهم أن قاموا بأي فعل شائن قبل ذلك. وهو على يقين كما يقول بأنهم تعرّضوا للاستفزاز، وهذا يعني أنه لايمكن أن يسلّمهم.

رد رومولوس:

- لقد ارتُكِبَ الإثم، ولايمكننا أن نرفض عقاب المذنبين. فالقانون سواء بالنسبة للجميع، ولايحق لي حتى لو كان القاتل ابني من لحمي ودمي أن أخفيه وأبعده عن أيدي المهانين!

لكن تاتيوس قام بإخفاء أصدقائه. فاستشاط الأمير رومولوس غضباً وقال له:

- أيها الملك تاتيوس، إن الآلهة تغضب ممن يخرق القوانين، فإذا لم نقم بإحقاق العدالة فإنها ستُنزل بنا العقاب، وسيثور الشعب!

فلم يجب تاتيوس وأصرّ على إخفاء المذنبين.

عُلِم في روما كلّها ثم في لورانت أنّ الأمير رومولوس أراد عقاب قاتلي السفراء، لكن الملك تاتيوس رفض ذلك. فجاء أهالي السفراء إلى روما يعلنون احتجاجهم:

- إنّ الرجال الذين قتلوا على طريق روما، كانوا في طريقهم إليكم، مكلّفين بمهمة من مدينتنا. ما قيمة قوانينكم إذاً، إذا لم تقوموا بحماية أرواح السفراء المقدّسة؟

إذا أصرّيتم على عدم تسليمنا المذنبين، فإن الآلهة ستعاقبكم وستدفع المدينة كلها ثمن فعلتكم!

ألحّ رومولوس مجدداً على تاتيوس كي يسلّم القتلة لمن يملكون الحق في عقابهم، لكن دون جدوى. وتوالت الأيام، ولم تُحقَّق العدالة.

خلال ذلك الوقت، أُعلن عن انتشار وباء خطير في مدينة روما، قضى على الأطفال والنساء والرجال والعجائز. كان الوباء يقضي على السليم والقوي خلال ثلاثة أيام فقط، فكان الأخوة يموتون قرب اخوتهم، والأزواج قرب زوجاتهم، والآباء قرب أطفالهم. وصار النحيب والبكاء يُسمع في كل بيت، وازداد عدد الأموات.

قال الناس:

- إنها عقوبة من الآلهة جلَبها علينا المذنبون الذين لم ينالوا عقابهم!

وقال الأمير رومولوس: - إنّ الآلهة غاضبة علينا، ويجب تهدئتها.

فأمَرَ بإقامة احتفال كبير مقدّس، وتقديم القرابين للآلهة داخل مدينة «لاڤينيوم». ذهب الأمير رومولوس بصحبة الملك تاتيوس وأهمّ الكهنة، وأبرز المواطنين الى هناك. وعلم أهالي وأصدقاء الضحايا بذلك، وقرّروا الثأر بأنفسهم فذهبوا خفيةً إلى «لاڤينيوم» وجلسوا لهم بالمرصاد. وفيما كان الأمير رومولوس والملك تاتيوس يقدمون القرابين للآلهة، هرعوا داخل المعبد، وانقضوا على الملك تاتيوس وطعنوه. ثم صاحوا:

- ظهر الحقّ! وكفّر تاتيوس عن ذنبه!

- يعيش رومولوس! يعيش زعيم الرومان!

وعاد رومولوس مجدداً، وحيداً على رأس روما.

-٢٢-
الوباء المميت

عندما وصل نبأ موتِ الملك تاتيوس إلى روما ولاڤينيوم، شعر السكان بالارتياح. وتمنّوا أن تهدأ الآلهة، وأن يتوقف الوباء، لكن المرضَ عاثَ فساداً أكثر من ذي قبل. ففي كل يوم كان هناك أعداداً جديدة من الوفيّات. والناس ينوحون وينتحبون وسرعان ما حل بالمدينة وباء آخر إلى جانب الوباء الأول.

لقد كانت روما كبيرة إلى درجة أنه لابد أن يكون لها أعداء، وكانت الشعوب المجاورة تخشاها كثيراً لكنها لم تتجرأ على شنٍّ الحرب عليها منذ أن زادت قوتها باتحادها مع السابان. أمّا الآن وبعد أن ضعفت المدينة. فقد قرّر أهالي «كاميريا» ومن بَعْدِهم أهالي «ڤييس» مهاجمتها.

عندها، استدعى الأمير رومولوس فرسانه ومشاتَه. وحضر الجنود جميعهم تاركين وراءهم عائلات يائسة، أو أبٍ، أو أمٍّ، أو أخ يُحتَضَر، لكن الحاجة إلى إنقاذ الوطن كانت تملأهم قوة وحماسة أقوى من الألم، خاصة عندما يتعلق الأمر بخدمة روما تحت إمرة قائدهم الذي يبدي عزماً وبسالة أكبر حين يبدو الخطر ملحاً ووشيك الوقوعِ.

غَلَبَ الرومان جنود «كاميريا» و«ڤييس». وانتهت الحرب، وعادوا إلى بيوتهم ليجدوا فيها الحزن والكآبة. تلك البيوت التي كانت تصدح في أرجائها

أصوات الأناشيد والضحكات، بات يرفّ عليها الآن صمت الموت، ولا يُسمَعُ فيها سوى النحيب والنواح. وبكاء القلّة الباقية على أمواتهم الذين غادروهم.

وعاد الحزن من جديد يخيّم على منزل سرڤيوس وسيرا. فخلال بضعة أيام مات أطفال فلامينيا الأربعة كلّهم، ثم تبعهم والدها، وخمسة من بين إخوتها وأخواتها، إلى جانب اثنين آخرين مريضين، كانت فلامينيا وسيرا تعتني بهما بانتظار عودة سرڤيوس وبليستينيوس من الحرب.

عندما وصل سرڤيوس أولاً وجد بيتَ والد فلامينيا مغلقاً، ووجد المرأتين قرب المريضَيْن اللذين تماثلا للشفاء. وكانتا قد نقلتاهما عندهما، إذ لم يعد هنالك أحد في البيت الآخر ليعتني بهما.

لحسن الحظ، بدأ الوباء بالتناقص. وكان الأمير رومولوس قد قدّم الكثير من القرابين للآلهة فاعتقد الرومان أنه قام بتهدئتها أخيراً.

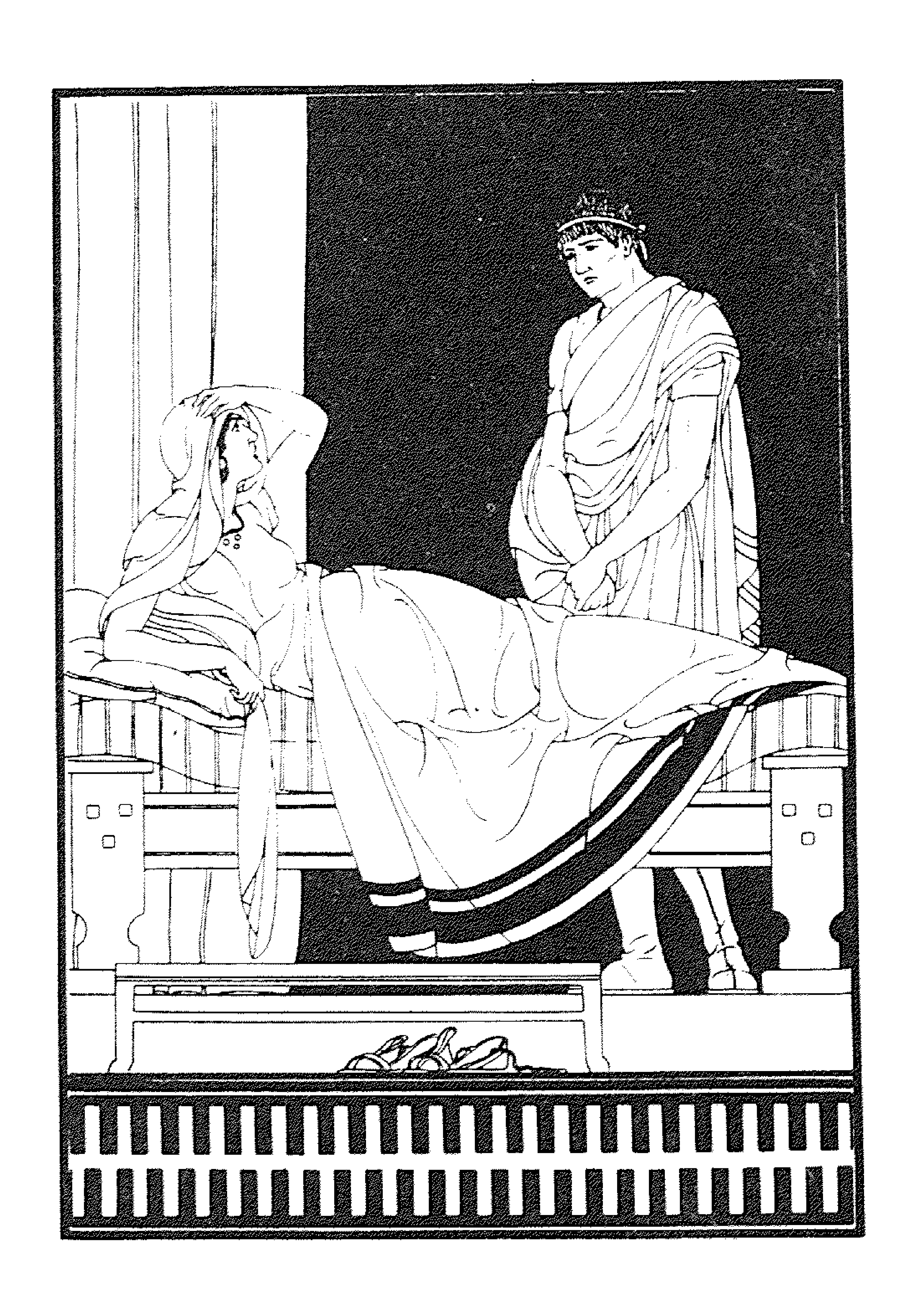
ظلّ سرڤيوس وفلامينيا وسيرا ينتظرون عودة بليستينيوس الذي لم يرجع من الحرب. ولم يعلموا أنهم سيعانون الحزن أيضاَ مرّة أخرى.

في إحدى الليالي، رأت فلامينيا زوجها في حلمها يهيمُ وكأنه ظلٌّ وسمعته يقول: - فلامينيا، ساعديني! أنالن أعود! أنا لم أعد بين الأحياء، فأنا ظلٌّ هائم، ولن أجدَ السلام مالم تقدمي لي قبراً لائقاً. فلامينيا! فكّري بي!

كان ذلك ما قاله الظلّ في حلم فلامينيا التي روَته لسيرڤيوس وهي تنتحب، فأجهش معها سرڤيوس في البكاء.

- واأسفاه يا أخي! إنّ زوجك ميتٌ! ولن يرى النور مجدداً! إنه الآن ظلٌّ شاردٌ بين الظلال ولا يعرف الراحة أبداً! ينبغي أن ندبّر له قبراً مناسباً.

أخذ سرڤيوس يبحث عن جثمان أخيه. فوجده في ساحة المعركةوقد اخترق رمحٌ صدرهَ.



وساعده أصدقاؤه المحزونون على نقله، مقدّمين له التحيات العسكرية جميعها، فقد مات وهو يقاتل في سبيل الوطن. ثم قاموا بدفنه بجانب القبر الذي يرقد ليسينيوس فيه، وحيث كان أولاده الأربعة الصغار يرقدون.

وسكبوا العسل، والحليب، والقمح فوق القبر، وأحرقوا البخور ليتمكّن الظلُّ أخيراً من الرقود بهدوء. وطلبوا منه أن يقومَ من مملكة الظلال بحماية بيتهم الذي اجتاحه الخراب والموت، وإعادة السلام إليه.

ذُرفت الدموع، وتعالى الصراخ والعويل في منزل سرڤيوس.

لكن الهدوء عاد إليه بعد حين.

-٢٣-
سرڤيوس يتبنّى ولداً

تماثل شقيقا «فلامينيا» الصغيران «بلين» و«مانليوس» للشفاء، وسرعان مانسيا آلامهما وعادا يملآن البيت بهجة وحبورا. وقد بقي فيه خمسة أشخاص فقط على قيد الحياة. كان البكر «توليوس» الذي يبلغ الثالثة عشرة من عمره يساعد سرڤيوس في أعماله، ويقوم في أوقات فراغه بالركض واللعب مع إخوته الأربعة الصغار في أرجاء البيت والحديقة. فيغتبط «سرڤيوس» و«سيرا» بهذا المرح الطائش الذي لم يمحُ الماضي، إلا أنه بدّد الحزن الكئيب الذي كان يسيطر على البيت بدون وجود الأطفال. قال سرڤيوس لسيرا:

- إن هؤلاء الأطفال بمثابة أبناء «بليستينيوس» أخي، إنهم فقراء وأيتام، بينما نحن أغنياء لاخلَفَ لدينا. أرغب أن يكون واحداً منهم على الأقل ابننا، ويرثَ بعد موتنا كلّ ماتملك، وأن يُقيمَ في بيتنا، ويتابع رعاية وحفظَ موقدنا، لكنّ ذلك يتطلب قانوناً يُجيزُ ذلك.

وبعد بضعة أيام، فاتحَ سرڤيوس رومولوس بالأمر.

استشار الأميرُ الأشرافَ، وقام بتفحصّ المسألة، فرأى أن سرڤيوس مواطن روماني، لا أولاد لديه، فقد مات ابنه، وفقد أبناء أخيه أيضاً، فكيف ستستمرّ عائلته؟ ينبغي أن يصبح أحد أخوة «فلامينيا» ابناً له بالقانون، فيحصل الابن بذلك على كافة الحقوق، ويضطلع بكافة الواجبات المترتبة عليه إزاء أسرتِه الجديدة.

بهذا توصّل إلى حلّ المسألة.

فَعَمَدَ الأمير رومولوس إلى جمع الفرسان، وأصحاب بليستينيوس في الميدان الكبير كما استدعى أيضاً النبلاء، والكهنة، وأعداداً كثيرة من الناس من القبائل المختلفة التي تتألف منها روما، إلى جانب رؤساء القبيلة الثلاثة، لقد حضر كل من في المدينة. وأعلن سرڤيوس أمام ممثلي روما عن رغبته في تبني «مانليوس» أصغر إخوة «فلامينيا» الذي سيحقّ له - كابن - أن يرثَ كل ممتلكاته بعد موته، وعليه أن يقيمَ في منزله ويحافظ على الشعلة في الموقد، ويقدّم الحليب، والخمر، والبخور إلى قبور العائلة وإلى الآلهة المنزلية.

وهكذا، أصبح الأخ الأصغر لفلامينيا ابناً لسرڤيوس وسيرا قانونياً.

وبعد أن تبنى «سرڤيوس» «مانليوس» استطاع غيره من المواطنين ممّن لم يكن لديهم أطفال أن يحذوا حذوه.

وبفضل القانون الجديد، أصبح الصغير مانليوس ابناً لسرڤيوس وسيرا اللذان نجحا في بناء أسرة جديدة فوق حطام الأسرة القديمة.

أخيراً، وبعد المِحَنْ الكثيرة التي عانياها، أمكن لسرڤيوس وسيرا أن ينعما بشيبةٍ هادئة مطمئنة.

-٢٤-

حكاية العاصفة
الخاتمة

توالت فترات من الحرب والسلام، وبانتصار رومولوس على كلّ الناس، باتت الشعوب المجاورة تحترم روما وتخشى قوّتها، وبهذا عمّ السلام أخيراً.

غيرَ أنّ الأمير رومولوس الذي أسّس مدينةً قويّةً، وتغلّب على أعدائه كلّهم، والذي كان يُعبَد كإله، انتشى من عظمته، ولم يعلم كيف يتغلب على غروره.

فلم يعد يستشير النبلاء أو الأشراف، ونسيَ نصائحهم، وصار يتمسك برأيه الخاص. فقد كان يريد أن يكون السيّد الوحيد. فبدأ النبلاء يضمرون له العداء، ويتمنّون موته.

وذات يومٍ غريب من أيام الصيف، تلاشى نور الشمس في وَضَح النهار فجأة خلف غمامة سوداء، ودوى قصف الرعد بشكل مرعب، تصحبه زوابعُ من الرياح العاتية والمزمجرة جلبتْ معها العاصفة. فتوارت العصافير لتحتميَ من غضب السماوات. واختبأت الحيوانات في الجحور المظلمة يملؤها الذعر، وأصاب الناس الهلعَ، فأخذوا يبحثون عن ملاذٍ لهم يحميهم من ثورة عناصر الطبيعة.

وبينما كانت العاصفة في حالة هيجان وغضب، كان الأمير رومولوس في معبد «فولكان» يقدّم القربان للآلهة بصحبة أعضاءٍ من مجلس الشيوخ.

وغرقت السماء والأرض في بحر من الظلمات، الذي كانت تشقّه من حين لآخر ومضات تُعمي الأبصار، وتخترقه جلجلات الرعد المدويّة.

ثمّ هدأت العاصفة. وانشقت الغيوم السوداء، وظهرت وراءها ضياء الأفق المنيرة، وعاد الهدوء، وأشرقت الشمس من جديد. لكنّ أحداً لم يجد الأمير رومولوس بعد ذلك.

توجّه أعضاء مجلس الشيوخ، والنبلاء، إلى الناس وقالوا لهم:

- يا أهالي روما، لقد اختفى أميركم وزعيمكم، مؤسس مدينتكم، أثناء العاصفة الهوجاء الرهيبة، حينما كانت السماء والأرض تغطّان في العتمة.

إنّها الإرادة الالهية. ونعتقد أنه خُطف بناءً على رغبة الآلهة التي تعتبره واحداً منها ليكون بينها.

صاح أهالي روما مزمجرين، وطالبوا بأميرهم، عندئذ تحدّث «جول بركولوس» الصديق المخلص لرومولوس، وقال للرومان:

- يا أهالي روما، سأقول لكم مارأيت تماماً. تلك الليلة كنت أسير وحيداً في شوارع روما، تحت ضوء القمر، فإذا بحبيبي، ورفيق عمري الأمير رومولوس قادماً نحوي، ذلك الأمير الذي يُحزننا جميعاً هنا في روما فراقه. لقد بَدَتْ أسلحته وكأنها سُبِكَت من القمر والشمس، أمّا وجهه فكان وجهَ من تذوّقَ من رحيق الآلهة. قلت له: «أيها الصديق والأمير، لمَ تركتنا؟ ولمَ عرّضتنا للاتهامات الفظيعة، وتركتَ روما تغرق في البكاء والحزن؟».

ذلك كان سؤالي للظلِّ المشعِّ. فأجابني: جول بروكولوس، قُل للرومان ألاّ يحزنوا، بل على العكس، قل لهم أن يفرحوا لمصيري، لقد أنهيتُ المهمةَ التي أُوكِلَتْ إليّ على الأرض. فقد أرسلتني الآلهة إلى إيطاليا كي أُنشئَ فيها أعظم مدينة في العالم، مدينة تبقى خالدة أبد الدهر. عاشت روما.



إنها اليوم منيعة وقوية، وستبقى كذلك في العصور القادمة. أمّا أنتَ، فقُل للرومان أنّ رغبتي هي التالية: أريدهم أن يراعوا قوانيني، وأن يسيروا على خطا العدالة. إنني الآن إله بين الآلهة، منذ اليوم أصبحتُ الإله «كيرينوس» وباستطاعة الرومان أن يطلبوا مساعدتي، وسوف أقوم بحمايتهم».

«أيّها الرومان، ذلك كان ما قاله لي الأمير رومولوس في تلك الليلة، وبعد أنْ أنهى كلماته، اختفى فجأة من أمامي. أيّها الرومان، استمعوا إلى كلام أميركم وزعيمكم وأطيعوه. أرهبِوا أعداء روما، لكن احترموا زعيمكم، وراعوا القوانين التي شرّعها أميركم لكم، وسيقوم رومولوس مؤسس روما الذي ارتفع إلى السموات تحت اسم «كيرينوس» سيقوم بحمايتكم على مرّ العصور. يعيش رومولوس، ملك روما، يعيش الإله «كيرينوس» حاميَ الرومان!

وهتف الناس جميعهم بصوتٍ واحد.

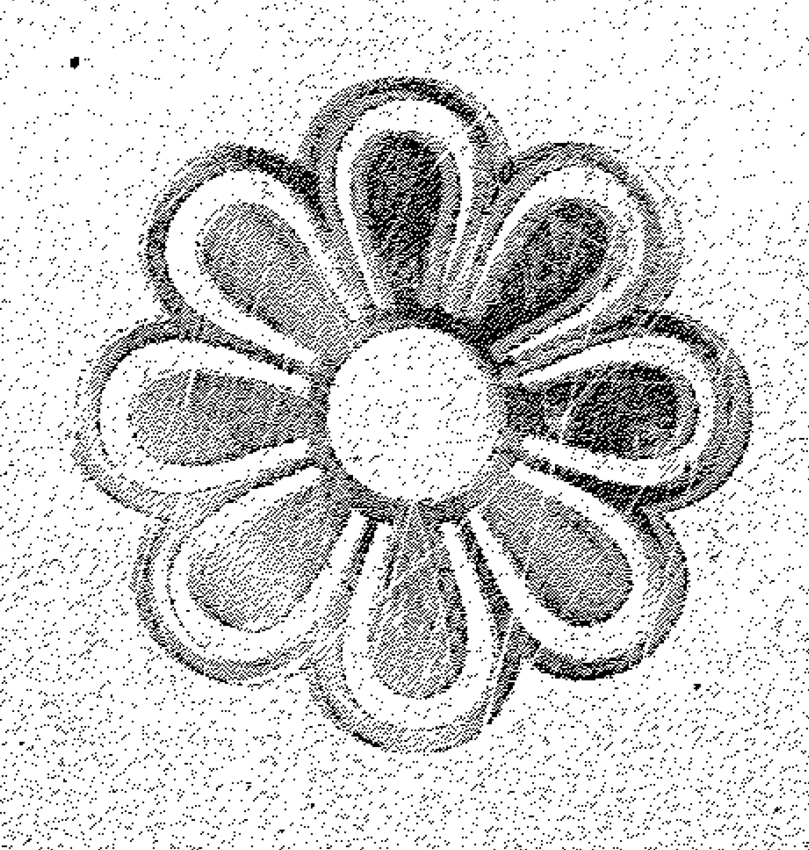
- يعيش رومولوس ملك روما! يعيش الإله «كيرينوس» حاميَ الرمان!

هكذا هتف الرومان- بعد أن خفّف «جول بروكولوس» من غلوائهم- في تمجيد ملكهم وإلههم رومولوس، مؤسس روما.



الفهرس

٢٠٠٠ ط١/ ١٠/ ١٩٩٩



الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشـــق - ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل

٢٠٠ ل.س